ذكريات
فضيلة ودليلة

رواية بقلم

د. إيهاب سلام





مؤسسة الانتشار العالمي
للطباعة والنشر والإعلان والتوزيع
ت : ٠١٠٢٧٢١٢١٣

E.mail: Alentshar٤٨@hotmail.com

الكتاب : ذكريات فضيلة ودليلة (رواية)

الكاتب : د.إيهاب سلام (مصر)

الناشر : مؤسسة الانتشار العالمي

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٧م

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٧٨٩١م

الترقيم الدولي : ٩-٠٢-٦٢٢٦-٩٧٧-٩٧٨

تصميم وجرفك الغلاف : المهندس خالد نورالدين

الجمع والإخراج : وحدة الكمبيوتر بالمؤسسة

تمهـــــيد

جلست فضيلة ودليلة تحت الشمسية. وأمواج البحر تتلاطـم أمامهما. وتتكسر في ذل أمام الرمال. حتى إذا ما وصلت إليها ركعت في ضعف ثم توارت بين الرمال.

قالت فضيلة: انظري هذا البحر الهائج كيف تستذله الرمال!

قالت دليلة: البحر مملكة والبر مملكة. ولكن داخل البحر قـد يبدو لا فوران. وتحت اليابس قد يكون هناك بركان.

قالت فضيلة: هذا مثلك يا دليلة. شكلك ثائر ولا ينبئ عمـا في داخلك من ركود.

قالت دليلة: والبر مثلك. وجه هادئ ولا يـدل عمـا فـي أعماقك من فوران.

قالت فضيلة: إيه يا دليلة لا تذكريني. ظن الناس أنني العفة ذاتها. ولم أعرف طريقي إلى العفة يوما.

قالت دليلة: وظن الناس أنني دعارة متحركة. ولـم أك إلا طيبة القلب حنونة.

وانسابت بينهما الذكريات....

فضيـــــلة

أتعرفين كيف تعرفت عليك. كنت عشيقة الرجل الذي كـــان ينوي الزواج منك. رأيتك معه في فندق سميراميس، تجلســـين في وقار مصطنع، فأنت من طبيعة نارية. ولو أني من طبيعـة مائية أو قولي ترابية. وكان يتكلم بهمس لـم اسـمعه. وأنـت الثرثارة لا تتكلمين. كيف ضبط نفسك في هذا الوقت.

لا أدري. يبدو أنك كنت تتقنين التمثيل في ذلك الزمان. لـم أعرف وقتها كيف تعرف عليك. وقررت في هذه اللحظـــة أن أتتبعك وأعرف كل شيء عنك. ركبت سيارتي وراء ســـيارته وهي تقلك ولم تفلت مني إشارة واحدة. كنـت أسـير ناحيـة اليمين، وهو يسير ناحية اليسار. لم أتواز معه حتى لا يكتشـف أنني أترصده فيزوغ مني. وأعبر الطريق قبل أن ترفع الرايـة الحمراء. وأقف عندما يتوقف. وأنحرف كما ينحرف. وتركـك عند عمارة كبيرة مرتفعة الأدوار تكاد تصافح السحاب. ولعلك وقتها طلبت منه ذلك حتى تذهبي إلى عمارة أخري قريبة أقـل قيمة وأقل جمالاً. ولعلك أقنعته أنك لا تريدين أحداً يراك معـه. وأشرت إليه بعلامة الوداع. وانطلق بسيارته. لم أتتبعه فـأنت كنت ضالتي. تكلمت مع بواب العمارة. وانتظرت أن تدخلـي من الممر الملكي للبرج لكن هيهات. لقد اتجهت إلـى سـيارة مرسيدس تقف أمام العمارة وركبت. وانطلقت كالسهم وأنا فـي أثرك.

يمكن أن أقول إن عشيقي – خيري بك عبد الرزاق – كان ينطلق بسرعة متوسطة. أما أنت فقد أسرعت كأنك تريدين أن تسبقي الضوء. لا تريدين أن تمشي كالزمن بطيئاً بطيئاً.. كأنه فيلم ممل. استغربت أن لا تصعدي إلى البرج العالي وتمضي إلى مكان آخر. دفعني الفضول أن أعرف. تأكدت أن وراءك سراً عسير المنال. ولو كشفت هذا السر فسوف أهدم علاقتك مع خيري عبد الرزاق. لا بد أن السر فضيحة متخفية محجبة كمجرم هارب من العدالة يستتر وراء نقاب. ويقلد النساء المحجبات. أنت لا تتصورين ما كنت سأفقده لو تزوجك خيري! .. ثروة طائلة تسد عين الشمس. وقولي حينئذ لعين الشمس ألا تلهب من حولها.

بوغت فعلاً بدخول سيارتك المرسيدس إلى قصر كبير في شارع الهرم. من القصور التي لم تجر عليها يد الزمن. ولم يلمسها بلدوزر الإزالة. وبجانب هذا القصر كانت هناك عمارة شاهقة. أعرف واحدة فيها من بنات الهوى. زاملتها زمناً في ملهى ليلي. وأدركت أنها الوحيدة التي سوف تدلني على ساكنة القصر أو أهل ذلك القصر.

التمست مكاناً بجانب العمارة. ونهض البواب يحييني فلطالما زرت فيفي في هذه العمارة. ولطالما دسست في جيبه جنيهاً أو جنيهين ليشتري بها سجائر. مع أني لا أعرف ما إذا كان يدخن أو لا يدخن. ولولا جنيهاتي ما نهض ولا رسم علامة السلام العظيم. ولما جرى وفتح لي باب المصعد. ولما ذكرني بأن فيفي تسكن في الدور الخامس.

استقبلتني فيفي نصف ناعسة، فالوقت لم يكن قد تعدى الواحدة بعد الظهر. ولعلها كانت تنام من السادسة صباحا حتى الرابعة أو الخامسة مساء. لتبدأ سهرتها في الملهى الليلي بعد ساعات. ويبدو أن السهر المتواصل مص عودها وجعلها لا تزيد على أكثر من خمسة وأربعين كيلو جرام. ووقتها كانت الموازين قد تغيرت من الرطل والأقة إلى الجرام والكيلو جرام. أراد المسئولون وقتها أن يرفعوا الأسعار فلا يهتم أحد بعمليات حسابية يومية ليحسب قيمة رطل اللحمة ذي القروش التسع بكيلو اللحمة ذي الثلاثين قرشا.

مدت يدها على الفور إلى علبة سجائرها وسألت: ما الذي قذف بك علي في هذه الساعة؟..

قلت بلا مبالاة: كنت أمر من شارع الهرم، فتذكرت انك تسكنين هنا فقررت أن أزورك وأتعرف على أحوالك.

- والله لا يزال في الناس خير.

استثقلت استقبالها ودمها وحركاتها، فوجدت أن خير الأمور الدخول في جسم الموضوع دون تأن: لم أظن أبدا أن بجوارك هذا القصر لا يزال باقيا.

نفثت دخان سيجارتها. وكانت قد أشعلتها بعصبية: إنه قصر دليلة شكري. مليارديرة يا ابنتي تعيش فيه هي وأولادها.

- أولادها ؟..

– لم نشاهد لها زوجاً ولكن شاهدنا لها أولاداً.

– عجيبة!

– يبدو أنها تتبنى الأولاد، مثلما تفعل تلك المغنية الزنجية.. لا أعرف اسمها.

ولم أكن أعرف اسمها أنا الأخرى، فأنصت بفضـــول. ثـــم سألت لما توقفت عن الكلام. وقد جلست وهي تضـــع ســـاقيها على المقعد المذهب في حجرة استقبالها. وساعدها ارتداؤهـــا المنامة النسوية على عدم الكشف عن ساقيها النحيلتين.

– وكم عدد الأولاد ؟
– جرمز .. جرمز ... يا ابنتي . المهم أنني لم أرها يومـــاً حاملاً.. ولم أر أولادها صغاراً...

نهضت وأنا أقول لها: ومتى ترينها. الناس تعمل صباحـــاً وأنت تنامين. وتنام في المساء وأنت تستيقظين. أتركـــك الآن لأن شكلك ثقيل الظل.

قامت تصافحني وتقبلني كأنما وافقت على انصرافي بـــهذه السرعة وبهذه السهولة. ولما كانت صداقتي بها محدودة فلـــم أهتم باستقبالها البارد، ووداعها المثلج.

التقيت بخيري عبد الرزاق في بيتـــي مســـاء. وقلـــت لـــه بسخرية: أتريد أن تتزوج من امرأة لها ثلة من الأولاد؟!

نظرني بسذاجة تخفي جبالاً من المكر وهو يسأل: أولاد!!.. من هي؟!

ضحكت وأنا أقول: دليلة شكري.. يا معلم.

ونهضت لأصب لنفسي كأساً وأنا أقول: لك حـــق.. فــهي مليارديرة.

بوغت وهو يقول: دليلة شكري هذه سكرتيرتي.. ومرتبـــها الشهري لا يتجاوز مائتين وعشرين جنيهاً.. ولا زالت عــذراء لم يمسسها بشر.

إذا فأنت كنت السبب في تباعد خيري عني، فوجئــــت بـــه يقول لي إنني امرأة ولست عذراء. وأن لــــي أولادا. ولســـت عزباء. وأنني غنية وأدعي الفقر. سخرت منه، وقلت لــــه إن كان يريد أن يقطع علاقتي به فلا أهمية لذلك عندي. كنت فـــي ذلك الوقت قد انشغلت بآخر جاء إلى الشركة. أتعرفيــــن إنـــه فراش.. ساعي بالشركة لكن القلب وما يريد!.. ولعلمك فــــإن خيري كان رئيس مجلس إدارة الشركة. قد تقولين إن ذوقــــي رديء، ولكني هكذا أعجب بالوسيم الأنيق. ساعي ولكنه نظيف ومهندم. استغرب الموظفون هذه النظافة والأناقة لكنه فســـرها أنه كان يعمل في لبنان وشرب الحضارة من هنــــاك. وهنــــاك السعاة لا يفترقون عن البكوات. وهو لا يفترق عنهم في شيء. أبيض الوجه. مدور. شعره ذاب على جبينه. يرفع خصلته من حين لآخر من عليه بيده القوية. تصوري أنني عشقته. وقررت أن يكون لي. ولما اخبرني خيري بهذه الحقيقة المرة. أنكرتها. أسقطته من حسابي. وتفرغت لهذا الولد الشقي.

كان مريبا حقا يتنصت كثيرا وأنا ألاحظه. بدا لي كضــــابط شرطة مدسوس في العمل للكشف عن السرقات التــــي حدثـــت وتحدث في مخازن الشركة. كنت أعمل في حسابات المخــــازن حيث تحدث السرقات. كان خيري قد أطاح بي حينما صـــــدق كلامك دون إثبات.

طاردت فهمي حتى عرفت أين يسكن. وبالصدفة كان يسكن في المكان الذي تقطنين فيه. وكنت قد قمت من نومك العميـــق واستقبلتني عند الباب. وسألتك عن فهمي. قلت لي إنه غـــادر في التو وقد يعود. ربما ذهب ليأكل لقمة. وقررت أن أنتظـره. وجلست إلى مقعد متهالك انتظر. وكنت أنت وأهلك تســـكنون في غرفتين، وهو يسكن في غرفة أخرى مجاورة، وجدها بشق النفس منذ شهرين. وقلت إنه عاد من الخارج كان يعمل فـــي لبنان. وعاد بعد أن عز العمل هناك. وأنت ماذا تعملين؟.. قلت إنك تعملين ممرضة في مستشفى. واشترطت عليك المستشــفى أن تعملي بصفة دائمة في وردية الليل. أما والدك فهو إسـكافي يعمل عند ناصية مسجد السيدة زينب. ووالدتك ربة بيت. أمـــا أخوك فهو يعمل ميكانيكيا. استأذنت مني لتصلي العصر، فقـــد كاد أن يفوتك. وكانت عيناك لا تجيبان طـــول الوقــت عـــن السبب الذي من أجله تأتي الشـــمس لزيـــارة بـــاطن الأرض السمراء. لكنك لم تكوني تجرئين أن تسألي. بيد أنه في ذلــــك اليوم لم يأت.

رأيته في اليوم التالي. وأخبرته أنني ذهبـــت إليـــه. رفـــع حاجبيه مندهشا. وسألني عن السبب. قلت له إنني كنت أريد أن يبحث لي عن خادم. قال بوقاحة: أتعتقدين أننـــي أعمـــل فـــي مكتب لاستخدام الخدم. ضحكت وقلت له: إذا فأنت لا تعمل في ذلك المكتب. قال: كيف عرفت أنني أسكن في ذلك البيـــت؟.. قلت: ألا تعرف أن شئون العاملين قريبة من هنا؟..

لم يكن يعرف أنني ذهبت لأغويه. ولعلك تقولين إن نفســـي حلوة. تهفو إلى الذباب مثلما يســـعى وراء الحلـــوى. ولكنـــك ستعرفين فيما بعد أن نفسي كانت تهفو إلى اللذيذ الألذ.

لقد استمر فهمي يعمل زهاء شـــهر فـــي إدارة الحســـابات والمخازن، ثم نقل بعد ذلك إلى مستودع المخازن، فأنخلع قلبي من مكانه. شعرت كأن صدري انتزع مني. يبدو أنـنـــي حيـــن أغرم برجل، لا أتمكن من مفارقته. وكـــان مديـــر المخـــازن يمتدحه ويثني عليه، لذلك أختاره ساعيا لمكتبه فـــي مســـطرد حيث تقع مخازن الشركة. وكان مدير المخازن يأتي كل يـــوم في الصباح، ولا سيرة لديه إلا فهمي الساعي النشيط. ودائمـــا ما يعاير الساعي الجديد به. يكشف له قذارته وإهماله وســـوء خلقه. ويمتدح نظافة فهمي وحبه للعمل وأدبه الجـــم. وحينمـــا قلت له: لم لا تعيده إلى الإدارة ما دمت ترتاح إليه وتثني على عمله. رفض وقال: أنا أريده في المخازن.

وفجأة، تم القبض على مدير المخـــازن متلبســـا بالســـرقة. واعترف في قسم الشرطة أنه ارتكب كل الســـرقات الســـابقة. وكان فهمي يقف بعيدا عن موقف الأحداث لذلك لم يشك أحـــد فيه. وكان من بين الشهود على سرقته فهمي ذاته.

وتم تعيين مدير جديد للمخازن، تسلم عمله في اليوم التـالي. ولما أخبرني الزملاء ذلك، استغربت أن يحدث التعيين بين يوم وليلة. وطلبني المدير الجديد هاتفيا، وطلب مني معاملة معينـة. حملتها في زهق وذهبت إليه. لم يكن في نيتي أن أرتبط بـــه، فقد كان قلبي معلقا مع فهمي الساعي. وكنت انتظر أن ينقـــل من جديد من مسطرد إلى وسط المدينـــة، حتـــى أراه وأوثـــق علاقتي به. إذ ذهبت إلى غرفته في حي السيدة زينب، حيـــث كنت ولازلت وقتها تسكنين فأخبرتني أمك أنه ترك الحجـــرة. وعدت خائبة أفكر أن اطلب نقلي إلى مسطرد لأكون بـــالقرب

من حبيبي الجديد. لا تتهميني بأن قلبي كالخرشوفة يسكن الحب فيها على كل ورقة منها. لا.. إن الحب السابق يموت ويحل بدلا منه حب جديد. وحينما يموت هذا الحب الجديد يبحث قلبي عن حب آخر. كان حب خيري رئيس مجلس الإدارة ينبض في قلبي. قتله بيديه حينما واجهني بحقيقة أمري، أنني أم لأطفال كثيرين وأنني ثرية.. وأنني.. تلك الكلمات التي واجهني بها قتلت الحب.

دخلت عليه وليس في رأسي شيء. وفتحت باب حجرة المدير بعد طرقه. ودخلت لأجد فهمي متربعا على عرش المخازن. معقول أن يكون ثوابه أن ينقل من ساع إلى مدير للمخازن. قلت له: كيف تجرؤ يا فهمي على أن تجلس على كرسي المدير. قال بجرأة: أنا المدير يا دليلة هانم.

– كيف حدث ذلك؟..

– تمت ترقيتي بعد أن ضبطت اللصوص.. لصوص مخازن الشركة. لقد أنقذت الشركة من خسارة تقدر بالآلاف من الجنيهات. ألا أستحق أن أثاب ويكون ثوابي إدارة المخازن.

لكن أنت لا تعرف القراءة والكتابة. ولا تعرف شيئا في المخازن؟..

– أتعلم يا دليلة هانم. أتعلم. هل تعلميني القراءة والكتابة وتحصلين على أتعاب كبيرة.

– أعلمك يا سيادة المدير.. أعلمك..

فرصة أتقرب فيها من حبيب القلب. كنت مشـــدوهة مـــن الموقف. لم يحدث في يوم من الأيام أن نُقـــل ســـاعي مـــن وظيفته إلى وظيفة مدير. كأنما تم تعيين شيخ خفـــراء قريـــة مأمور أمن محافظة. ولما عدت إلى زملائي. كنـــت ذاهلـــة. وعرفوا السر فراحوا يرون لي الموقف بوضوح. إن فهمي أخ صغير لخيري رئيس مجلس إدارة الشركة. اتصلت به أختـــه وهو يدرس في سويسرا وأخبرته عن هذه السرقات التي تحدث في شركة الأخوة. وجاء متنكراً واشتغل ساعياً دون أن يـــدري أخوه. وجاء تعيينه في إدارة حسابات المخازن بتوصيـــة مـــن أخته لمدير شئون العاملين. واستطاع أن يتربع علـــى عـــرش قلب مدير المخازن اللص. ووثق فيه الرجل حتى تمكن فـــهمي من وضع الأصفاد في يده وهو يسجل له كـــل أحاديثـــه مـــع العملاء وكل توجيهاته له. واكتشف أخوه الحقيقة، فعينه علـــى الفور مديراً للمخازن وحساباتها. إنه ابن عز وليـــس ســـاعياً. وهو مثقف متعلم وحاصل على شهادات لا حصر لها خـــلال إقامته في سويسرا. والآن ماذا افعل هل أستمر في حب فـــهمي وهو أخو حبيبي السابق أم أن القلب سوف يتخذ موقفاً جديداً؟..

فضيـــلة

أتعرفين لم أحاول أن أقارن بين المرأة التي كان يجالســـها خيري عبد الرزاق في مطعم شبرد، وتلك المرأة التي جـــاءت تبحث عن فهمي في ذلك البيت الفقير في السيدة زينب. شـــتان بين الاثنتين. يبدو فعلا أنك تجيدين التمثيل. في شبرد كنـــت تبدين فاتنة. أحمر شفاه لامع. وأحمر خدود وردي. وشعر لـــم يبذل فيه المصفف مجهودا لأنه رائع بطبعه. وسحنة مضـــاءة. أما في دارنا في حي الغلابة. فقد كنت عادية. لا تتخفيـن وراء شيء مبهر. لا تفتني الرجال ولا تثيرين غيرة النساء. كيـــف تتلونين بهذه السهولة؟..

لقد استمر خيري عشيقا لـــي، وتركـــك بعـــد أن أخبرتـــه بالحقيقة. لم يحاول أن يفتش في ماضي أيامي، ذلك المـــاضي الذي لا يعرفه أحد غيري. لقد كان أبي إسكافيا فقيرا. وأخـــي مساعد ميكانيكي مسكين. وأمي ربة بيت تدخـــل فـــي عـــداد الغلابة. ولم أطق هذه الحياة. وقررت أن أحصل على المـــال وأتمتع، ولكن ليكن ذلك كله سرا. كنت في الصباح أبدو الفتـــاة المسكينة المصلية المتعبدة الصائمة البعيدة عن الفســـق. وفـــي الليل كنت من بنات الهوى المتسلطات المخمورات الجانحـــات إلى الرذيلة. وكان أهلي لا يعرفون شيئا عـــن ذلـــك. كـــانوا يعرفون أنني أعمل في مستشفى بعيد عملا ليليا متواصلا. وإذا تأخرت في الصباح (نتيجة جرعات الخمـــر الزائـــدة وعـــدم الإفاقة) أكون في هذه الحالة قـــد أخرتنـــي عمليـــة جراحيـــة

استغرقت زمنا، وهو ما يسمي في لغـــة المستشــفيات حالـــة طوارئ.

كنت أعود من العمل، وأنام حتى الرابعة. توقظنـــي أمـــي لصلاة الظهر ثم أعود من جديد إلى النوم من جديد حتى يحيـن وقت العصر. وحينما يحين وقت الغـــروب أتــرك حجرتينـــا وأمضي إلى شقتي، وأغير ثيابي وأتذوق وأتزين، وأذهب بعــد ذلك إلى حياة الليل. لا أظن أن أحدا يعرفني من حياة الصبـــاح يمكن أن التقي به في المساء. لم أكن لأجرؤ على ترك حيـــاتي مع أهلي. كان أبي صعيديا من المتمسكين بالشرف والأخـــلاق القديمة. وتشبع أخي بهذه المفاهيم وارتضى بقناعة بما يصـــل إليه من رزق. وإذا هربت منهما اندمجت فـــي حيـــاة الليـــل، لطارداني حتى يعرفا مكاني، ويشـــربا مـــن دمـــي الملـــوث، ويطهرا العائلة من الرجس الذي ألم بها. أما إذا بقيت وادعيـت أنني ملاك رحمة، فسوف يشعران بالسعادة والهناء. ولو أنـــهما لم يحاولا أن يتقصيا ورائي أحوالي، ويعرفا مكان عملي، فقـد كان كل منهما مشغولا في عمله كانت الثقة في بنت الصعيـدي متناهية خاصة أنني كنت أستحم كل صبـــاح، وأتجـــرد مـــن الروائح والعطور، وأمضمض فمي حتى تختفي رائحة السجائر والخمر، وأرتدي ثيابي الحقيرة، وأعود من جديد إلـــى حـــي السيدة زينب، لأنام في الحجرة الخالية من الهواء المنعش.

وجدت المال يتدفق في يدي بالفعل، لكن شعرت أن حيـــاتي مبتذلة. لذلك قررت أن اقتصر على رجل واحد من أصحـــاب الأعمال، ابتزه واستسلم له مقابل ذلك الابتزاز.ولا أعرف أحدا غيره، حتى إذا ما أهملني أو أهملته، أعود أبحث عـــن آخـــر. بشرط أن يمتلئ رصيدي المصرفي بالمال، وأتمكن من شـــراء

سيارة خاصة وأن امتلك ما أحب من عقارات. ولم اكن قــادرة على أن أفيء مما املك على أسرتي. لأن السؤال المؤكد فــي هذه الحالة هو من أين لك هذا؟.. إذا عرفوا قتلوني. ولا أعتقد أنهم سوف يتغاضون عن ذلك السؤال أبدا. والقتل آت لا محالة في حالة الاعتراف بالفسق.

ويبدو أن بسبب الفقر المدقع الذي كنا نعيشه. وبسبب إخفاء جمالي عن الخلق ، فقد تركت شعري المجعد مسترسلا فظــهر كخنفساء كبيرة فوق رأس إنسان. وكنت لا أتزيــن. وارتــدي ثيابي القديمة. ولا يتمكن أبي الإسكافي من تجديدها. من أجــل ذلك كله لم يفكر أحد أن يتقدم لخطبتي أو الاقتران بــي. هــل سيضم فقره إلى فقري؟.. غير أن المفاجأة حدثت حينما جــاء شلبي يطلب يدي. يبدو أنه أكتشف أن وراء هذه المرأة فاتنـــة متخفية، فتقدم لأبي في محله –مكان في الشارع بالقرب مـــن المسجد– وطلب يد ابنته فضيلة.

نظر أبي إلى الرجل الماثل أمامه. واستغرب أن يطلب يــد ابنة رجل فقير. وتأمله مليا فوجده حســن المظــهر ونظيــف الثياب، ماذا يعمل؟.. يعمل كاتبا في إحدى المصالح الحكومية.

قال أبي:أهلا بك.

جاء أبي في المساء وقال لأمي: نظفي المكان فهناك عريس لابنتنا سوف يزورنا اليوم.

ولم أكن موجودة بطبيعة الحـال، إذ كنـت أغـادر عنـد الغروب، ولا أعود إلا في الصباح. قالت أمي: ألا ينبغـي أن تكون فضيلة موجودة حتى يراها؟ ...

خبط رأسه وقال: نسيت.. ثم أردف: نقول له تعال غـدا.. وقولي لها ألا تذهب إلى العمل.

فوجئت بأمي تقول لي:لا تذهبـي إلـى المستشـفي غـدا. احصلي على إجازة. سألتها عن السبب. قالت:هناك عريـس سوف يأتي لخطبتك. أنقبض قلبي كأنه يحذرني من الخطر.

صرخت قائلة: أمعقول أن المستشفى سوف يوافـق علـى إجازة بسهولة. إنهم حتى يحرموننا من الراحات الأسـبوعية. يعوضوننا بالمال. فكيف تظنين أنهم سوف يوافقون على إجازة عارضة. قالت أمي مستفسرة: وما العمل؟.. أجبت: انتظـري حتى أحدد لك الوقت وتبلغيه به.

ماذا أعمل يا ربي؟.. هل أرضى برجـل فقـير وأتـوب واصبح امرأة صالحة أم أرفضه؟.. وماذا سأقول عن أسـباب رفضي إياه؟.. أقول إنه فقير ولا يجوز أن يجتمع فقيران معـا لأن الحصيلة سوف تكون شقاء. وهل انتظـر حتـى يتقـدم ثري؟... وأين هو الذي يرضى بفتاة من الرعـاع؟.. ومـاذا يحدث لو أصر أبي على الزواج، باعتباره ولـي أمـري، ولا يجوز في عرف الصعايدة أن تختلف البنت في الرأي عن رأي أبيها. ولا يجوز لها أن تخرج عن طوعه، وإلا كان جزاؤهـا الذبح؟..

أسئلة كثيرة لم أتمكن من الإجابة عليها. ومأزق لا أستطيع الإفلات منه. لقد اكتشفت من الحديث مع أمي، أن أبي مصر على أن أقترن بذلك الرجل.. وأن لا فكاك من ذلك. شعرت أنني سقطت في مصيدة فأر ولن أتمكن من الفرار منها.

ولم لا أقبله؟.. وإذا اكتشف أنني لست عذراء، وأخبر أبي، فكيف سيتصرف أبي؟.. بل كيف سيتصرف هو نفسه إزاء هذا الوضع المشين؟.. هل يقبل الاستمرار معي ويغفر لي أم يذبحني هو الآخر أم يطلقني وأعود إلى بيت أبي مجللة بالعار؟..

لا سبيل أمامي إلا أن أقبل الخطبة، ثم أدعي بعد ذلك أنه بخيل أو عليل أو فيه عيوب لن تتمكن امرأة مثلي من تحملها ويتم فسخ الخطبة. أو أعقد له المشاكل الخاصة بالشبكة والمهر والشقة والأثاث ويهرب من تلقاء نفسه. ووجدت أن ذلك هو الحل. وطلبت من أمي أن تحدد ميعادا للقائه، فقد تمكنت أخيرا من أن أستأذن ساعتين من إدارة المستشفى.

على ذكر الخطوبة والزواج. أتعرفين؟.. لقد زوجني أبـــي في سن صغيرة حتى يتخلص مني. كان رجلا لاهيـــا. ثريــا يلعب بالمال، والمال من يده لا ينتهي. يسكر ويعربد ويـــترنح ويعاشر النساء من مختلف الألوان. وكنت أمثل عبئـــا عليـــه، رغم أن هناك دادة لي. قامت مقام أمـــي. كـــان تعتنـــي بـــي وتعلمني واجبات الأنثى وترشدني إلى طريق الصواب. هـــي التي غرزت في قلبي الطيبة والبساطة والسذاجة فـــي بعـــض الأحيان. ولو أني كنت في الواقع ثائرة متمردة غاضبة. لكـــن الطيبة في قلبي تجعل الثورة تخفت بعد دقائق مـــن إعلانـــها. والتمرد كانت البساطة تصب عليـــه مـــاء مثلجـــا فينكمـــش. والغضب كانت السذاجة تطيح به هباء منثورا. أراد أبـــي أن يتخلص مني ربما حتى لا أرى مباذله. ولا يسقط في نظـــري. واستمررت مقدرة إياه واعتباره مثلي الأعلى، فزوجنـــي مـــن رجل كبير في السن. لا أعرف أسباب أن يزوجني من ذلـــك الرجل الكبير وأنا لا زلت في سن السادسة عشرة. هل تراهنـــا على شيء فخسر أبي الرهان وكان تزويجي إياه المقابل الـــذي يتفادى به الخسارة أو يقايض به على الرهان؟.. ربما. كـــان الأمر غامضا بالنسبة لي. واستمر حتى اليوم سبب زواجي في سن مبكرة أمرا مجهولا. تركت المدرسة علـــى أثـــر ذلـــك. وأصبحت ربة بيت مع رجل سقيم. لم أقبل مداعباته الفجة. ولم أشعر بأي حب نحوه. وسخطت على أبي سخطا شديدا.

في أول ليلة اكتشفت أنه يعاني من العجـز. وأنـه أراد أن يسترد شبابه مع طفلة. غير أن الطفلة كانت لـوح ثلـج زاده عجزا. بيد أنه لجأ إلى الأطباء لعلاجه ونجح العـلاج. ولمـا طلبني دهشت أنه استرد عافيته. لكن المتعة معه كانت عارضة وقليلة. وكان يتركني طوال اليوم ولا يعود إلا في المساء. كان رجل أعمال من الرجال المرموقين. وطلبت أن أواجه الفـراغ بالعودة إلى الدراسة، فرفض، لذلك قـررت أن أقلـب حياتـه جحيما. لا غذاء ولا عشاء ولا إفطار. وإذا تـرك ملابسـه لا تعلق. وإذا ترك فراشه لا يسوى. ولما عاتبني على ذلك. قلـت له: أنا لست خادمة. وأدركت أنه بخيل لأنه لا يستخدم أحـدا. يريد أن يوفر مصاريف الخادم. وكـان إذا تـرك مصـروف البيت، رفضته لأنه لا يكفي. ولما قال لي: هذه ليست عيشـة. قلت: من أجبرك عليها؟.. طلقني. وطلقني بـالفعل. واتخـذت ورقة الطلاق هذه فيما بعد مسوغا لأن أكون امـرأة مطلقـة. وتزوجت أكثر من رجل بهذا المستند، ولم يحدث من ناحيتـهم أي طلاق أبدا.. كنت أترك الرجل أو بالأحرى الـزوج فـي أوج سعادته، ولا يعرف لي مكانا بعد ذلك، وأتـزوج الآخـر مؤكدة أنني امرأة مطلقة. وها هي قسيمة طلاقي من العجـوز الغيور. يمكن أن تقولي إن جريمة تعدد الأزواج كانت تلاحقني وأنا أهرب منها فلا يطيلني الاتهام ولا يتمكن زوج سابق مـن رؤيتي.. وكيف يتسنى للمأذون أن يعرف أن المرأة تزوجـت وعلى ذمة رجل وهى تقدم له وثيقة طلاق؟..

المهم أنني عدت إلى بيت أبي. وحدث صراع بيني وبينـه، بسبب أنني حامل. كان يريد أن يعطي الولد لأبيه بمجـرد أن يولد، لأنه لا يطيق تربية الأولاد. وكنت أصر أن أبقـي أبـاه وأمه وكل شيء في الدنيا له. يقول لي إنـه لا يطيـق تربيـة

الأولاد. أقول له: وكيف إذا رباني؟.. يقول لي إن الولد في النهاية لأبيه وليس لأمه. أقول إن ليس له أب. أبوه مات في نظري وإنه لو أخذه سيعذبه لأنه بخيل ونتن. استمر الأخذ والجذب في الحديث طوال فترة الحمل. خشيت أن يأخذ الولد عنوة مني ويسلمه لأبيه. تمنيت أن يموت ولا يحدث ذلك. بل وصل الأمر به أن طلب بالهاتف زوجي السابق وقال له إن له ابنا على وشك الولادة، فرح الرجل فرحة كبيرة. وطلب مني أن أعود إلى البيت معززة مكرمة ما دمت سوف اجلب له ولي العهد، لكني رفضت لأنه بخيل وقذر ولا نظافة في أخلاقه ولا نظام في حياته. قال لي إن كل ثروته تحت أمره. كل ما علي هو أن أعود. قلت له إنني أنقذت نفسي من الجحيم فكيف أعود مرة أخرى. قال ما هو الجحيم؟.. قلت جحيم الوحدة والتوحد. ألم تكن تتركني بالساعات كل يوم وحيدة بين أربع جدران في قصر طويل وعريض ليس فيه إنسان غيري. جحيم البخل ألم تكن تتركني بلا مال زهاء أيام، ولولا أنني أذهب إلى بيت أبي وأغرف من خزانته دون أن يدري لكنت تضورت جوعا. أنسيت المعاملة السيئة؟.. قال لي أعاهدك أن كل ذلك سوف يزول. وسنبدأ عهدا جديدا. عدت دون مشورة أبي. ويا ليتني لم أعد. رجعت ريما إلى عاداتها القديمة. وعاد من جديد إلى السهر. يبدو أنه كان يلتقي بالنساء الأخريات يجدد معهن شبابه الضائع بدلا من لوح الثلج الذي ينتظره في البيت. كيف لا أكون لوح ثلج وهو العجوز الأشيب ذو الوجه الكالح والفم الكريه؟.. كيف لا أكون لوح ثلج وأنا أتحايل على أبي أن يمدني بالمعونة من أجل أن أعيش وأن ينمو ابني؟..

تركت له البيت مرة أخرى، وعدت هذه المرة إلى قصر أبي اللاهي.. ذلك القصر الذي شاهدته في شارع الأهرام

بالجيزة.. هناك أنجبت ابني الأول. وكان يوم مولده يوم وفاة أبي. ولم نستطع أن نفرح لمولده ولم أستطع أن أحزن لوفاة والدي. لم يبدد الرجل ثروته على الخمر والنساء والميسر. كان حريصاً في عدم تبديد الثروة لكنه لم يكن حريصاً في المحافظة على صحته. تهرأ كبده بسبب الخمر التي يحتسيها يومياً كأنها ماء. كان لا يفتأ يتجرع أكثر من كأس في الصباح.. أو أكثر من كأس عند الظهيرة. ويعبئ معدته بكؤوس في المساء بين النساء. لم يكن يفترق عن زوجي ولو أن الأول يجهر بالفحشاء. والثاني يخفيها. وقبل أن يموت قال لي كلمة عذبتني واستمرت تعذبني ليل نهار. أمك ما تزال على قيد الحياة. لقد خطفتك منها. حاولي أن تبحثي عنها لتشعري بحنان الأم. سألته وأنا أبكي: كيف تفعل ذلك؟.. كيف تحرمني من أمي؟.. أين يمكن أن أجدها؟.. قال: لا أدري.

مات قبل أن ينطق لي بعنوانها. كان يريد أن يلقي بي في دوامة، لا أعرف كيف أخرج منها. شغلني عنها وضع الطفل عن كل شيء مثل إجراءات الدفن والتوديع منعتني من معرفة أين تقيم أمي. وجاء عمي ليكون وصياً عليّ بعد وفاة أبي. كان مختلفا عنه اختلافاً بيناً. كان الرجل يصلي ويصوم ويزكي. ويعرف الحلال من الحرام. لا يرضى أبداً أن يقتنص شيئاً من مال اليتيم. وتركني أعيش في قصر والدي معززة مكرمة مع دادتي أمينة. تلك التي لازمتني كأمي منذ مولدي وتعذبت معي وتنعمت معي. سألتها عن المكان الذي أجد فيه أمي؟.. أجابت أنها لا تعرف شيئاً عن الماضي، لأنها قامت على رعايتي بعد مولدي وانفصال أبي عن أمي، أو اختطافه إياي منها. سألتها ألم تتردد أمي على القصر لتشاهدني. أجابت بأن لا أحد كان يدخل القصر أو يخرج منه حتى العم الوصي عليّ الآن لم يكن

يتردد على القصر، كان منفصلاً عن أخيه. كان أخوه يسير في طريق لا عودة منه، أما هو فكان يسير في الطريق المستقيم، يعرف بدايته ونهايته. ولما سألت عمي عن أمي؟.. أجاب بأنه كان منفصلاً عن أبي بعد أن تم تقسيم التركة بينهما. ويبدو أنه تزوج أمي سراً وخطفني منها ولم يكنا يعيشان في ذلك القصر. كانا يعيشان في شقة استأجرها، لذلك فإن أمي -من المؤكد- لا تعرف قصر شارع الأهرام.

لما عرف زوجي -وكان قد ردني ووثيقة طلاقي في جيبي- أنني أنجبت له ولداً سميته عاطف. جاء يحاول أن يعيد المياه إلى مجاريها فطردته. وجلست يومها أقارن بين سلوكي وسلوك والدي. هو تزوج من امرأة خطف منها طفلتها. وأنا تزوجت من رجل خطفت منه طفله. أكانت أمي سيئة السلوك فهرب منها أبي. أم أن الخمر هيأت له أنها سيئة السلوك فأراد معاقبتها بحرمانها من الطفلة فخطفها واسكنها في مكان لا تعلم عنه شيئاً.

لم يلبث زوجي طويلاً في الحياة، ومات. فآلت إليّ ثروته أنا بصفتي زوجه وأبني بصفة الوارث لباقي الثروة وأنا الوصية عليه. بل إن عمي لم يشاركني في ثروة أبي. تركها لي كلها لأني أعول ولداً وكان عمي يستحق نصفها شرعاً.

وقررت أن أدرس من جديد وأدخل الجامعة وأربي ابني. وفي الجامعة التقيت بفارس. كان فارساً من فرسان الكلمة. يخطب في الطلبة ويحركهم ويدفعهم إلى مطالبة الحكومة بمحاكمة رجال النكسة. وغضب غضباً شديداً حينما تمت المحاكمة لدمى لا صلة لهم بالنكسة في رأيه. كان يريد أن

يُحاكم عبد الناصر نفسه. وأفلت فارس من الشرطة، وهي تحاول القبض عليه. استطعت أن ادخله في سيارتي وأمضي به إلى شقة خاصة بي في أحد الأبراج التي تركها أبي على النيل، وكان يتخذها وكراً له، فاتخذتها بالتالي وكراً لي لقربها من الجامعة. ورفض أن يعيش معي دون عقد زواج، فلم أمانع. كان زوجي لا يزال على قيد الحياة، ولم يعرف أنني تزوجت من فارس، قدمت للمأذون وثيقة طلاقي. وعرف فارس أنني ثيب، وأنني مطلقة قبل أن يدخل بي.

أختفي فارس في شقتي على النيل، حتى هدأت الضجة وعاد إلى دراسته كأن شيئاً لم يكن. ولم يكن في نية الشرطة أن تحاكمه بل أن تعتقله حتى تهدأ الزوبعة. واصبح بعد هدوء العاصفة لا فائدة من اعتقاله، فقد رضخ الشعب للأحكام التي صدرت في حق المسئولين عن النكسة. ولم يعد يثور كأنه وجد أن الثورة لا فائدة منها. وأن القوي يمكن أن يمحق الضعيف. وتضيع الأنفس بهذا المحق، ففضل البقاء على الأنفس، بدلاً من الضياع أو الموت.وتخلف سنة كاملة عن الدراسة.

ولم يعرف فارس أن لي ولدا. ولم يعرف أن لي قصرا. وأن هناك أموالا طائلة ترقد تحت قدمي. أدرك فقط أنني سيدة مقتدرة ماليا. ولي سيارة أقودها بنفسي. ولي شقة. ولي مصدر مالي لا يعرف من أين أستمده. بل لم يصل إلى علمه أن يكون ذلك البرج القابعة فيه شقتي كان يدخل في ممتلكاتي.

لا تقولي لي لم تركته؟!.. إنه الحمل. لقد حدث في نهاية امتحان البكالوريوس بكلية التجارة أن كانت الأيام الأخيرة من حملي. وما كدت أسلم الورقة الأخيرة للإجابة حتى داهمني

المخاض. ونقلت إلى مستشفى القصر العيني وأنا أعاني وأصرخ وأتألم بينما فارس كان لا يزال يؤدي امتحانه. الحقيقة أنني غادرته قبل أن يظهر حملي. وكنت أتجنبه في الكلية. ولم يرني مرة واحدة وأنا حامل. بل كنت أؤدي الامتحان للسنة النهائية في لجنة وفي يوم يختلف عن يومه ولجنته لأنه كان قد تخلف سنة عني عطلته ثوريته عن تحصيل العلم فاختلفنا في مواعيد الامتحانات.. ولعله كان عازماً على أن يفتش عني تفتيشاً دقيقاً عقب انتهاء الامتحان في السنة الثالثة. فقد جاء يوماً إلى الشقة وطرق الباب لأن المفتاح لم يكن صالحاً للفتح ولم يجبه أحد. وسأل البواب عني فأجاب بأنني تركت الشقة، وكانت الشقة مستأجرة مفروشة من قبلي وأن الشقة لما رُدت لأصحابها غيروا قفل الشقة، وعاد يومها خائباً، كما قال لي البواب فيما بعد.. وكانت أقواله كلها هي أقوالي التي أمليتها عليه. ولما تمت الولادة عدت يومها إلى قصري بالهرم أضم بنت فارس إلى ابن البخيل. اصبح عاطف أخا لعفاف ولا يدريان أنهما من أبوين مختلفين، ولو أن أمهما واحدة. المهم أنني تزوجت فارس وأنا لا زلت على ذمة البخيل ولم يكن قد حدث له لقاء رب كريم بعد.

فضيـــلة

عجيبة هذه الحياة. أنت كنت تتجبين الأطفال، ورغم ذلــك تتزوجين زواجاً رسمياً. أما أنا فكنت محرومة منهم، فتمـاديت في غيي، لقد ذهبت إلى أحد الأطباء في ذات يوم من الأيــام، لأعرف أسباب أنني لا أحمل من هؤلاء الرجال الذين يتصلون بي، رغم أنني لا أستعمل علاجات واقية. وكشــف الطبيـب بدقة. ثم تركني ارتدي ملابسي وأعود إليه عند مكتبه. وعرفت منه أن رحمي طفيلي، ولا سبيل إلى أن احمل طفــلاً. بكيـت يومها. ولا أعرف لم بكيت. ربما لأن ذلـك الوضــع سـوف يجعلني استمر في مساوئي. وأنا أريد أن أنتشل نفسي من هـذا المستنقع. وتسأليني لم بكيت. لعل الخوف من الحمل كان مــن الممكن أن يمنعني من التمــادي فــي الرذيلــة. ولمــا كــان استمراري في واديها الخرب رجس كبير، لذلك بكيــت علــى نفسي وعلى حالي لأني لن أجد حجة للهروب من ذلك الــوادي الخراب. بكيت في تلك الشقة التي استأجرتها في المنيل، تلــك التي كنت استقبل فيها عشاقي. وفي ذلك الحين اقتصرت علــى عشيق واحد.

لقد غير هذا الطبيب طريقة الفساد التي أتبعها. كنت لكــل رجل مادام يدفع الثمن. فطلب مني أن أقتصــر عليــه. وأنــه سيعوضني عن ما يدفعه كل الرجال الراغبين في متعتي. فــي ذلك الوقت قبلت لأن قليلاً من الدنس أكثر خيراً من كثيرهم. لم يكن متزوجاً كما قد يتبادر إلى ذهنك ويخفي علاقاته مع امـرأة عن الناس. كان أعزب، ولكنه يكره أن يرتبط بالمرأة رباطــاً

شرعيا. أقول لك الحقيقة هو الذي أغدق علي. هو الذي اشترى لي شقة باسمي، وتركت شقة الإيجار. وهو الذي اشترى لي سيارة، ولم أجرؤ أن أدخل بها الحارة، حتى لا يصاب أهلي بالمرارة. حينما يعرفون أن ابنتهم انحرفت. وتتفجر في قلوبهم براكين الغضب فيقدمون على عمل ينأى عن الخير ويندفع إلى الشر. وهو الذي اشتري لي ملابسي الفاخرة، تلك التي كنت اتركها لحظة أن أفكر في أن أعود إلى الحق الحقير في الحارة الضيقة القذرة. لا أدري ما هو السبب الذي من أجله بذل ذلك الطبيب هذا البذل وأجزل العطاء. ولم كان محجما عن الزواج. إن ذلك من الأسرار الشخصية التي يحتفظ بها الإنسان ولا يتمكن من البوح بها لأحد. لم يكن مستهترا ولم يكن فاسقا مما جعل الاندهاش ناحيته يوغل في قلبي وفي أعماقي دون أن أحاول أن أعرف لسؤالي جوابا. وهأنذا أروي لك بعض الأسرار الخاصة بي، ولا أتوقف عن سردها عليك. أنت تعرفين كم كانت هذه الأسرار عبئا على صدري، أشعر الآن وأنا أذيعها أنني أزيح هذا العبء، وأن قلبي يَرتاح. يبدو أن إذاعة الأسرار فيها تخفيف من العبء. لكن سر عدم زواج ذلك الطبيب لم يكن يمثل عبئا عليه فلم يبح به.

نسيت أن أقول لك ما كان لي مع شلبي، ذلك الرجل الذي تقدم لخطبتي. حينما اجتمعنا به أنا وأبي وأمي وأخي. ناقشته في مسيرة حياتنا بعد الزواج. وكان أبي يستمع محاولا أن يثنيني بعينيه عن المواصلة، وأنا لا أهتم. قلت له: أين سنعيش؟..

- إن لي بيتا -شقة- أسكن فيها مع أمي.

- ولم لا تكون لنا شقة مستقلة؟..

- لأن قدرتي المالية لا تكفي.

- إذا أنت تريدني أن أكون خادما لأمك؟..

- حاشا أن يخطر ذلك بذهني.

- وهل سيكون الأثاث قديما أم جديدا؟..

- لنبدأ بحجرة نوم.. ثم نشتري بعد ذلك كل الأشياء عاما بعد آخر. حجرة استقبال. ثم حجرة الطعام.. وما تريدين.

- إذا فأنت لا تنوي أن تدفع مهرا.

- لقد أفهمني والدك أنه غير قادر على تجهيز أي أثاث.

- لا تنوي أن تشتري لي شبكة.

- نقرأ الفاتحة الآن.. وبعد شهور ثلاثة.. تتم الخطبة وأتمكن أن أشتري لك شبكة محترمة.

- وبعد سنة نكتب الكتاب.. وتشتري لي حجرة النوم.

- نعم .. نعم .. كأنك تقرئين أفكاري.

التفت إلى أبي وسألته: ماذا تقول في ذلك يا أبي؟

فوجئت بأبي يقول لي: على بركة الله.

لكنها خطبة ولدت ميتة، فلم أقر الفاتحة معهم كما ظن أبواي وأخي. بل لم أحدد ميعاد الشبكة بعد ثلاثة شهور. إنما أعلمت أبي أنني لا انوي أن أخطب للرجل لأنه فقير. وأنا فقيرة. بل مرتبي عشرون جنيها ومرتبه ثلاثة عشر جنيها. فأنا أكثر منه مالا، فهل سأصرف عليه أم سيصرف علي؟.

سألني باقتضاب: أهو لعب عيال.

قلت: إنه هروب من الفقر والقحط يا أبي.

ولما عرف شلبي الخبر، صمم على أن يعرف أسراري الخفية. ظن أن في الأمر طبيبا يغازلني في المستشفى وأهواه وأرفضه من أجل ذلك الطبيب. هكذا قال لأمي حينما قالت له إن البنت لا تريدك. كانت لديه الفرصة سانحة أن يراقبني، لأنه يعمل في وزارة من وزارات الخدمات، وعمله لا يتعدى الثانية بعد الظهر، ويكون متفرغا لأن يتتبعني بهمة. عرف أنني أخرج لعملي في تمام الساعة الخامسة بعد الظهر. ووقف عند ناصية الحارة وتوارى حينما رآني خلف عامود من عواميد النور في الشارع الرئيس المتفرعة منه الحارة. وطفق يتبعني. لكن أذهلته المفاجأة إذ ناديت على سيارة أجرة، وركبتها إلى شقتي المملوكة لي بالدقي. لم يكن في مقدرته أن يدفع لسيارة أجرة قيمة المسافة بين السيدة زينب والدقي. وعرف في اليوم الثاني أن هناك ضياعا لوقته إذا ما استمر يترصدني. وأن الفتاة على حق إذ رفضته، فهي أكثر منه مالا. وخمن أنني أتقاضى مرتبا أكثر مما أعلنته. وأدس الباقي في

جيبي، وأعطي أبي خمسة عشر جنيها فقط. هكذا قـــابل أمـــي بالصدفة في السوق، وهمس لها بما استنتجه. وجـــاءت أمـــي تسألني عن قيمة مرتبي الحقيقية. وشككت فيما أقـــول وكـــان برهانها سيارات الأجرة التي أركبها. قلت لها إننـــي لا أدفـــع قيمتها إنما يدفعها المستشفي عني، فالمفروض أن تكون هنـــاك سيارة تأخذني وسيارة تقلني إلى بيتي. ولما كـــان المستشـــفى غير قادر على ذلك، فهو يسمح لي أن أركب ســـيارة أجـــرة يحاسبها المحاسب في المستشفى على قيمتها. وعادة ما أعـــود بسيارة عمومية حتى أوفر ثمن سيارة الأجرة. وأصرف الفرق على غذائي الغالي الثمن في المستشفي.

كنت أنتظر ذلك الطبيب الذي أصبحت عشيقته حتى يـــأتي من عيادته. وكان يغيب فيها حتى الساعة الحادية عشرة فقـــد كان طبيب أمراض نساء. وكان يجري عمليات إجهاض للنساء اللواتي يحملن سفاحا أو اللاتي يردن أن يتخلصن من حملـــهن، لذلك كان صيته ذائعا. وكان تهالك النساء على عيادتـــه يـــدر عليه مالا كثيرا. ولم يكن يجد مصبا لهذا المال غير جيبي. لـــم يكن له أمل في مستقبل. ولا رغبة له في الـــزواج وإنجـــاب الأطفال من أخرى. ولا أمل في أن يدخر لمستقبله، فقد كـــانت وظيفته الصباحية في وزارة الصحة سوف تتوج أعماله بمعاش كبير. وكان نباتيا لا يقرب اللحوم. ولم تكن له هواية معينـــة. ولا متعة في الأكل والشرب أو التنزه وكثيرا ما نـــهاني عـــن تدخين السجائر لأنها تضر بالصحة. كانت متعته الوحيـــدة أن يجد صدرا حنونا في نهاية اليوم. وكنت أنـــا ذلـــك الصـــدر الحنون. تبت عن البغاء، وفضلت أن أكون بين يديه، وليـــس تحت قدميه.

كنت أخرج بسيارتي من حين لآخر أشاهد المعروضات في الشوارع أو أحتسي كوبا من العصير في جروبي أو الأمريكيين أو تسيبس. وأتجول وأرفض أي مغازلات أو معاكسات. صرت لا أسمح لأحد أن يمسني غير ذلك الطبيب.

وفي أحد الأيام، توقفت سيارتي في الشارع، كأنها أصيبت بصاعقة. وساعدني أولاد الحلال في تجنيبها إلى يمين الشارع. وأشار أحدهم إلى محطة بنزين في شارع عبد الخالق ثروت بها ورشة لإصلاح السيارات. ودخلت المحطة والجميع يتأملون هذه الفاتنة. إنها امرأة تبدو غنية، ملابسها فاخرة، تضع على عينيها نظارة غالية الثمن تحجب بعض ملامحها، وحقيبتها جلدية بها حافظة نقود مدججة بالمال. وطلبت من مدير المحطة إصلاح السيارة. تعطلت فجأة ولا أمل في تحريكها. وأرسل إلي الميكانيكي ليقوم بإصلاحها. تصوري من يكون الميكانيكي. إنه أخي يوسف ابن أمي وأبي، ذلك الذي تجري في عروقه دماء الصعيد الزرقاء. ويحتد دفاعا عن الشرف والأمانة والكرامة. شاربه يقف عليه الصقر ولا يشذبه. وساعده يحطم مائة أو ألف رجل. وغيرت على الفور من صوتي. وقلت له بكبرياء وعنجهية: اصلح هذه السيارة يا اسطي.. فأنا على موعد هام.

لم اهتم بتأمله إياي، ولو أن قلبي كان يرتجف. هل سوف يعرف أنني أخته؟.. وهل شكلي الحالي يتفق وشكل فضيلة الممرضة صفراء اللون الخجول؟..

دليـــــلة

حدثت لي مثل هذه الحادثة. حينما واجـــهت فـــارس فـــي الطريق بعد أن هجرته. لم يكن فارس يعرف أنني حملت منه، ولا أني أنجبت بنتا. وناداني: دليلة.. دليلة.. لكني اســـتجمعت كل شجاعتي ومضيت في طريقي. غير أنه شد يــــدي وســـط الصفوف أمام سينما ريفولي. وقال لي: دليلة. التفت إليه فـــي منتهى البرود وقلت له: لست دليلة. من أنت؟.. قال كأنما لـــم يسمع ما أقول: أنا زوجك يا دليلة. قلت له: يبدو أنك غلطـــان ليس اسمي دليلة. وحاول الناس أن يتجمعوا حولي ليســـتطلعوا الأمر، غير أنه أعتذر ومشى. وهو لا يصدق أنني لست دليلة. لا تسليني لم لم أعد إليه وأنا أحبه وأنجبت منه بنتا، فقد كـــان هناك شيء في داخلي يمنعني. عرفته فيمـــا بعـــد.. بعـــد أن تزوجت اثنين آخرين من الرجال دون أن يتم تطليقي من واحد منهما. أنجبت منهما، وتركتهما مثلما تركت فارسا.

كنت أمضي وقتي في البداية –مع ولدي عاطف وعفـــاف– في قصر والدي. وأشرف في نفس الوقت على الممتلكات التـــي تركها لي أبي. والممتلكات التي تركها لنا والد عاطف. وكانت عفاف –بنتي– تسأل: ألم يترك لي والدي شيئا مثل عاطف؟ .. كنت أتجاهل سؤالها وأغير مجرى الحديث وكان من صفاتـــها أن تنسى ما تسأله كأنما كانت تسأل ولا تنتظر إجابة. وحينمـــا لا تسمع إجابة لا تهتم.

غير أن حصولي على بكالوريوس التجارة، جعلني أسعى إلى العمل. وعملت في البداية في إحدى الشركات في القاهرة. وظهرت -كما هي عادتي- بمظهر المحاسبة الفقيرة التي لا تملك من حطام الدنيا شيئاً. وليس لدي سيارة. واسكن في بولاق الدكرور. واشتريت شقة هناك حتى يكون ذلك مقري الدائم بالنسبة للشركة. ولا تسألين لم أتصرف على هذا المنوال كانت هناك رغبة دفينة في نفسي أن أتخفي حتى إذا تعرف بي أحد الرجال يحبني لشخصي لا لأموالي. ولم يفكر أحد أن يتتبعني إلى هناك. مثلما حاول فارس أن يقتفي أثري في ذلك اليوم الذي التقيت به فيه. ويبدو أنه صدق أنني لست دليلة لأني لم أركب سيارتي بل ركبت سيارة أجرة تاهت من عينيه وسط القاهرة وعادت من جديد عند موقف المحكمة القريب من سينما ريفولي. تسألينني ولم لم أؤسس شركة أقول إنني فكرت أن اعمل أولاً واكتسب خبرة ثم أبدأ في تكوين شركة من أموالي الطائلة لكن بعد أن أكتسب الخبرة اللازمة.

حاصرني المعجبون في الشركة. واحد مهم كان يعمل في العلاقات العامة. والآخر كان معي في قسم الحسابات. والثالث كان يعمل مهندساً للإنشاءات في الشركة. ولفظت الأولين وبدأت انصب شباكي على الأخير. كان يتميز بأنه يظهر ما لا يبطن. يدعي أنه لا يهتم بي وهو متعلق بي تماماً. وكان مثل هذا الشخص يثير إعجابي. وتمكنت منه. ودخل المصيدة بسهولة. وطلب مني ألا أعمل. قاومت في البداية، ذلك لأن العمل يملأ الفراغ الذي أعيش فيه في الصباح حتى العصر. كان ولديّ يملآن هذا الفراغ في الصباح غير أنهما بدآ يدخلان الحضانة تمهيداً لالتحاقهما بالدراسة الابتدائية. غضبت في البداية ثم لم استطع. كانت حياتي بلا رجل تعتبر أرضاً جدباء

لا زرع فيها تتشوق إلى الزرع. وإذا ما دخل الرجل فيها تحولت إلى أرض خصبة بها زهور فواحة وخضرة نضرة وثمار يانعة. قبلت لكن بشروط أهمها المهر ومؤخر الصداق والشبكة. وشعرت أن المهندس القدير عاجز عن قبول الشروط. وأضفت إليها الشقة. وابتسم ابتسامة عريضة فقد ترك والده شقة واسعة في حي السكاكيني. قبلت بعد أن دبر الشبكة والمهر. ولم يعرف إلا أسمي ولقبي فقط وسكني في شقة بالإيجار وليس بالتمليك في بولاق الدكرور. تركتها لما تزوجته والحقيقة أنني أجرتها للاستفادة من إيجارها. ولم يعرف أن لي سيارة وأن لدي ممتلكات تدر دخلا وإيراداً عاليين. وعرف أنني هاربة من أهلي لأني تزوجت من رجل طلقني. ولذلك فلسوف أتزوجه من وراء أهلي، لأنهم من الصعيد ولن يقبلوا أن أتزوج من غير القبيلة التي أنتمي إليها. وقد حاولت التقرب منهم في الآونة الأخيرة لذلك فليسمح لي بالذهاب إليهم في أوقات الأربعاء والخميس والجمعة حتى لا يظنوا بي الظنون. وسوف أحاول أن أمهد لديهم في موضوع زواجنا حتى إذا ما شعرت أنه تقبلوه آخذه إليهم ليتعرفوا به. وصدقني غير أنه سأل:وإذا ما حملت فكيف إذاً ستواجهينهم؟.. قلت: في هذه الحالة قد امتنع عن الذهاب إليهم إذا فشلت في أن أعرفك بهم. وأعود بعد ذلك بعد أن أضع مولودي إليهم. قال: هل هذا كلام؟.. لكنه وافق على خطتي خشية أن يفقدني. شعرت في الأيام الأولي أن حسه مرهف وأنه لو تعرض لصدمة قد تودي به لذلك كنت حذرة في معاملته ولعل السبب في رهافة حسه ترجع إلى فقدانه حنان الأم في سن مبكرة وارتباطه بأبيه الذي مات فجأة وهو يدخل معترك الحياة.

كنت في الأيام الثلاثة الأخيرة من الأسبوع أذهب لأعيـــش مع طفليّ. بل كنت أذهب في الصباح بينما مرسي في العمـــل. ومضت الأيام دون أن أحمل. تصوري أنني كنت منزعجـــة. وكان مرسي يسأل باستمرار كأنما يجد مـــبرراً يســتدعي ألا أغادر البيت. بل كان يسأل: ألم تنجبي من زوجـــك الأول؟.. قلت: يبدو أنه كان عجوزاً عنيناً فلم يثمر كفاحه المضني معي.

يضحك مرسي لخفة دمي، وقد عرف أنني كنت متزوجـــة من رجل طلقني لكراهيتي له. ولكن لم يعرف أن ذلك الرجـــل ردني إلى عصمته، ومات. وأنني تزوجت آخر ولا زلت علـــى ذمته، ويبحث عني ولا يجدني. كنت مختبئة في بيتي أو فـــي قصري أو قصر ابني.. ولا أرتاد أماكن اللهو أو المتنزهات.

اطمأننت أن فارس لن يقدم على مواصلة البحث عني، فقـــد كان ضالعاً مع مراكز القوى، وحكم عليه بسبع سنوات يقضيها في غياهب السجون. كان ثورياً منـــذ مولـــده. يخـــرج فـــي المظاهرات وهو في الدراسة الثانوية. ويتزعم الطلاب وهـــو في الدراسة الجامعية. وسمع كلامي حينما طلبت منه أن يكـــن وينتهي من دراسته الجامعية. ثم عاد من جديد إلى السياسة بعد أن هجرته، ولعل العمل السياسي كان يملأ وقت فراغه. وبـــدلاً من أن يعارض أندس وسط رجال الثورة. واصبح يعمل ساعداً أيمن لأحدهم. وكان ذلك الرجل مرضيا عنه في العهد القديم ثم اصبح مغضوباً عليه في العهد الجديد. وكان فارس لذلك يعـــد من الضالين المضلين، فأُخذ بجريرة المغضوب عليه، وزُج به في السجن.

تنتابني في هذه الحالة مشاعر متضاربة. راحة لعدم اللقـاء. وشوق للقاء. لكن لا يمكن أن أعود إليه، وأنا تحت رجل آخر. وهناك أمر آخر أتعمد أن أخفيه ألا وهو أن يعرف أن له بنتـاً ويطالبني بها. إلى أن حدثت الحادثة، وشعرت بالحمل يدب في أعماقي.. وتركت مرسي إلى الأبد. ولن يفكر واحد من شـارع السكاكيني أن ينتقل للبحث عن امرأة فـي شـارع الأهـرام. وصارت سيارتي الخاصة لا تركن في شارع جانبي متفـرع من شارع رمسيس. كنت أركبها في صباح الأربعاء أذهب بها إلى شارع الأهرام لأتفقد حال ولديّ. وأعود في مسـاء يـوم الجمعة لأضعها في نفس المكان وأتمشى حتى بيت الزوجيـة. بل كنت أخرج بها في أوقات الصباح فـي بعـض الأحيـان لأقضي حوائجي. عادت السيارة من جديـد لتدخـل القصـر الواسع في شارع الأهرام. وترقد في مرآبه.

رجعت إلى ولدي وابنتي، لأضم إليهم بعد سبع شهور طفلاً جديداً هو جمال. سميته جمالاً ونسبته إلى مرسي. وكان فـي ذلك الوقت قد نسى الناس اسم جمال. وما دمت أنا ضد السـائد فقد انتقيت الاسم الذي تناساه الناس.

ربطت -كما هو واضح- بين حملي وفراري من زوجـي، وهو أمر حدث بتلقائية عجيبة ودون شعور مني، وقد حدث في الزيجتين السابقتين نفس الفرار. ووجدت أن اعـرض نفسـي على طبيب نفسي حتى أعرف الدوافع والأسباب التي تجعلنـي أهجر الزوج كلما حملت منه. كيف يمتنع عليّ العيـش مـع الزوج حينما أشعر أن الطفل يتحرك في أحشائي؟.. لكن مـاذا سأقول للطبيب؟.. إنني انتقل من رجل إلى آخر على سـنة الله ورسوله دون أن يحدث طلاق ولا حتى تطليق؟ .. لأقول لـه

مثلا إنني أتركه وأجبره على الطلاق ويطلقني ويستحيل علـــي بعد ذلك أن أعود إليه. لأسقط الحالة الأولي التي عــدت فيــها إلى زوجي، ولأخفي أنني استعمل وثيقة طلاقي مـــن الـــزوج الأول لإثبات أنني مطلقة أمام الرجل الجديد. يجب أن أصـــل إلى الحقيقة الكامنة في باطني وتحركني وتضغـــط علـــي أن اهجر زوجي الجديد كلما حملت؟..

كان يجب أن أزور طبيبا نفسيا ينقذني مما أنـــا فيـــه مـــن دوامات. لكن بمجرد أن أضع حملي أنســـى أن أذهـــب إلـــى الطبيب أنشغل بالمولود الجديد.

فضيـــلة

كان أخي يعمل في الســيارة ويفحــص أســباب العطــب. ويرمقني من حين لآخر. يقارن بين شبه هذه الســيدة الأنيقــة الراقية الواقفة أمامه وأخته الممرضة الفقيرة المسكينة. نفــس الملامح لكن هذه السيدة ترتدي ملابس فاخرة ولها سيارة فمــن أين لفضيلة هذا كله؟. . ولعله أقنع نفسه بأن المثل يقول إن الله يخلق من الشبه أربعين. فها هو المثل يصدق الآن.

حينما عاد إلى البيت رآني. حاول أن يتأملني بعمق. لعلــه يرى خطا منسيا تحت الحواجب أو الجفون. أو احمــر شــفاه مطموس. أو شعر كالحرير ينسدل على كتفي لكنه لم يجد شيئا من ذلك وأدرك أنني والسيدة صاحبة السيارة وجهان وجســدان متشابهان. وكتم في نفسه لم يقل لي شيئا ولــم يعــرف أننــي استحم تماما قبل أن أغادر شقة الدقي. وأعــود إلــى الســيدة زينب.وهكذا تجرف المياه كل ما حدث من تغيرات في الوجــه والشعر والجسد.

وكنت قد بدأت أفقد شهيتي للخمر والسيجارة فلم يعد مــهما المضمضة قبل العودة إلى الحارة. كانت حياتي مــع فــوزي دكتور أمراض النساء المعروف قــد اســتقرت. لكــن هــذا الاستقرار كان لحين، فقد تعرض لهزة أودت به، حينما دخلت حياته نجمة من نجوم الإغراء في السينما المصرية. لا أعـرف كيف استطاعت أن تقنعه أن يطلق حياة العزوبية والدخول فــي عش الزوجية. وكيف أقنعته أن يتزوجها ولها بنت من رجــل

آخر. عادة ما يتزوج الأعزب امرأة بكرا لم يمسسها رجل. وهذه النجمة كانت قد تزوجت من قبل، وهناك إشاعة أنها تزوجت أكثر من رجل، وليس فقط هذا الرجل الذي أنجبت منه ابنتها. وهكذا مرة واحدة أختفي الدكتور فوزي من حياتي، ولكنه كان كريما معي فلم يطلب مني أن أرد شقته إليه، لأن الشقة مكتوبة باسمي، ولم يحاول أن يفسر أسباب هذا التحول، إنما انقطع فجأة عني. كما تنقطعين أنت عن أزواجك. أيكون هو الآخر مريضا بمرض نفسي؟!.. لكن أعتقد أن في حالتي لم يكن الدكتور فوزي يريد أن يسبب لنفسه حرجا. قرأت خبر زواجه في إحدى المجلات الأسبوعية. وقد قررت نجمة الإغراء أنها سوف تتقاعد ولن تعمل مرة ثانية في المجال السينمائي، وذلك ما دعاني للتفكير أن أحتل مكان هذه النجمة لأملأ فراغها الذي سوف تتركه وراءها، لذلك كان علي أن أتردد مرة أخرى على الملاهي الليلية ، لعلي أجد مخرجا أو منتجا يرفعني إلى مصاف النجوم، بدلا من أبقى عاهرة لا مستقبل لها. لكن هل لدي الموهبة التي ستساعدني على حفظ أدواري وتقمص الشخصيات وأداء الأدوار أداء بارعا؟.. أقول لك إنني تركت المدرسة وأنا في المدارس الإعدادية، وقد أعلمني أبي أنه غير قادر على الصرف علي وعلى تعليمي، ويجب أن أتخذ طريق العمل مثل أخي الكبير. حتى أعلنته أنني سأعمل ممرضة في مستشفي في وردية الليل مقابل عشرين جنيها. كان المهم عنده أن يدخل جيبه خمسة عشر جنيها ويترك الباقي لي. وكنت أستغرب كيف يتباهى بأنه صعيدي ويستحل عرق ابنته. كان الأولى به أن يترك لي الجنيهات العشرين على أن أعيش منها. لا أن يلتهم ثلاثة أرباعها.

لم أفكر أن ادخل عالم الفن إلا بعد أن سرقت نجمة الإغراء مني الدكتور الفاضل. وساءلت نفسي: ماذا يكون الوضع لـــو عرف أهلي بذلك؟!.. سوف أتعرض للذبح بكل تأكيد. لم أعـــد أهتم بالقتل. كانت متعتي في كافة والاغتيال في الكافة الأخرى من ميزان الحياة. لو كان قد تعرف علي أخي في الورشة وهم بقتلي، لم يكن ذلك سوف يزعزع من استمراري فـــي طريـــق المتعة، لذلك فلا أهمية في هذه الحالة لأن يعـــرف. التقطـــت الخوف من قلبي وألقيت به في سلة المهملات. كان علي فـــي هذه الحالة أن اصطنع اتفاقا مع كومبارس يتقدم لأبي على أنـــه سوف يتزوجني، وأقبل. وبعد ذلك لا يرى الأهل وجـــهي ولا أري وجوههم. وأعيش حياتي. ولسوف يتم تغيير اسمي. وقـــد اصبغ شعري باللون الأصفر. وأغير في ملامحـــي. عينـــاي الواسعتان أضيقهما. وأنفي ألونه. وشفتي أصبغهما. وقد تساعد أدوات التجميل الحديثة في تغيير ملامحـــي، بالإضافـــة إلـــى استئجار فتوات تحيطني من كل جانب. في هذه الحالة سـيكون هناك عازل بيني وبين الراغبين في الذبح. وأعتقـــد أنـــه لـــن يتسنى لهم أن يعرفوا مقري ولا ما آلت إليه حياتي لأنـــــهم لا يرون السينما ولا يطلعون علـــى الصحـــف والمجـــلات ولا يسمعون المذياع.

وسقط فأر السينما المصرية في يد المرأة المبتذلة!.. كـــان مخرجا سينمائيا قصير القامة. أسود الحاجبين يغـــوص كـــل حاجب في الآخر. يشهد الجميع بعبقريته، ولو أنه قبيح الوجـــه تأنف الممثلات من الجري وراءه. غير أن المنتجين يقدورنـــه. كان قصير القامة جدا طويل الباع علما وفنـــا ومدرســـا فـــي أكاديمية الفنون . وعاملا في المجال الفني منذ زمن طويـــل.

ولم يكن قد دخل الدنيا لأن واحدة لم تلاحقه. وحينما لاحقتـــه وعدني بالمجد.

قبلت أن أصاحب هذا المخرج القبيح في ســـبيل أن أكـــون نجمة إغراء، مثل تلك النجمة التي خطفت طبيب القلب منـــي. واتخذت من سكن المخرج مقرا لي. وكان بحكم وظيفته يســهر الليل، فأسهر معه. وينام بعد انتهاء محاضراته الصباحية فـــي الأكاديمية فأكون نائمة في حجرتي في دار عائلتي. كان أخـــي وأبي يناماف في حجرة. وأنا وأمي ننام في حجرة أخرى. هكذا أراد أبي، ولكنه كان ينام فترة المساء مع أمي في حجرتنا مـــا دمت أنا في المستشفى المزعومة أعمل.

كنت إذا ألتقي في الليل مع رأفت. بل اذهـــب معـــه إلـــى الأستوديو، وأجلس بالقرب منه. وقد اعمل كومبارس في أحـــد الأفلام. وعادة ما لا يظهر وجهي إنما جسدي. بـــل كنـــت لا أنطق. ووعدني بدور هام في أحد أفلامه القادمة عندمـــا أزداد خبرة وأتمرس بالعمل السينمائي. بل كنت أشترك مع المـــاكيير في تجميل الممثلات والممثلين. عرفوا أنني صديقة المخـــرج وأنه لا يستغني عني. وكلمتي مسموعة لديه. سمحوا لوجوههم أن تتجمل بيدي. بل كان رأفت يدعوني إلى تذويق ممثلة بدقـة كما يريد فأتقن التذويق. أو كومبارس كان من المفـــروض أن يكون قبيحا فدخل المشهد ووجهه تظهر عليه السماحة، فأقلبـــه أمامه. وصرح لي الماكيير الأصلي قائلا: أنا أغار منك يا ست فضيلة. لقد أتقنت الصنعة جيدا. سوف تتركيننا على الـــرف. قلت: لا تخف. إنها هواية لا أتقاضى عليها مالا. ولن أمتهنها.

كان رأفت يسلمني كل ما لديه من مال. وكان يحـــاول أن يغطي على قبحه بكرمه، فالقبح منفر لكن الكرم جاذب. ولـــم أغدر به ولم تسول لي نفسي أن أدس الأموال في جيبي. إنمـــا كنت أضع في حسابي الجاري في المصرف بعضا منها بعلمه، وأضع البعض الآخر في حسابه لأن لا وقت لديه أن يذهب إلى المصرف ليضعه. كان العمل يدر عليه المال باستمرار لذلك لم يكن يهتم بما في جيبه أو بما في جيبي. وكنت ألازمه كظلـــه. وجاء يوم سألني: أين تذهبين في الصباح؟.. لم لا تنامين فـــي الشقة معي؟.. قلت: إن والدي صعيدي ولا يمكن أن أنام خارج البيت وإلا قتلني. قال: إذا كيف يسمح لك بالسهر ليلا. قلـــت: لأنه يعرف أنني أعمل في مستشفي. قال يقترح: ماذا لو قلـــت له إنك بصدد السفر إلى بلد عربي، وتتمكنين أن تتركي بيتـــه إلى الأبد، وتعيشي معي. سألته: أتتزوجني يا رأفت؟.. قال: أنا ضد مبدأ الزواج. لكن لا بأس أن تعيشي معي.

دليـــلة

نسيت أن أقول لك ما كان بـــأمر خـــيري وفـــهمي ابنـــيّ عبدالرزاق . بعد أن أنجبت جمال. قررت أن ابحث عن عمـــل أشغل به وقتي. توطئة لأن أؤلف شركة بعد أن اكتسب خـــبرة في ذلك العمل. لقد حرمني زوجي السابق –هكذا اعتبرته– من أن أعمل. وجعلني أعيش بين أربعة جدران بعيدة عن الحيـــاة العملية.وبدأت ابحث عن عمل أشعر فيـــه بذاتـــي وكيـــاني. واشتغلت في شركة خيري. غير أنك كشفت له حقيقتي.. ولـــم أكن أعرف كيف كشفتها. عزلني من العمـــل كسـكرتيرة لـــه ونقلني إلى قسم المخازن. المهم أنني تعلقت بأخيه وهو يمثـــل دور الساعي حتى يكشف لص المخازن. ووضح للجميـــع أن اللص هو المدير –مدير المخازن– نفســـه. وتعلقـــت بفـــهمي كثيراً. كان قلبي يتسع لحب أكثر من رجل. أو لعلـــها شـــهوة تعتريني عندما أعجب برجل، فأسعى إليه حتى ألبي مطالبـــها. ومثلما تمكنت من أن أنصب شباكي حـــول خـــيري. نصبـــت شباكي حول فهمي. ولكن خيري لم يعرف أنني على علاقـــة بأخيه، أنا التي أحبني. ولو عرف لربما تمكن من فسخ العلاقة مبكراً. واستطعت أن أملأ دماغ فهمي بأسطورتي بـــالتدريج. في مقابلة لنا سربت له خبر أنني كنت متزوجة وتم طلاقـــي، بل مات زوجي بعد طلاقي. وكان السبب في زواجي من رجل كهل، أن أبي كان على شفا حفرة من الإفلاس، وأنقـــذه ذلـــك الكهل من السقوط في الحفرة مقابل الزواج من ابنته الفاتنـــة. قبلت رغماً عني، لكن لم أتمكن من الاســـتمرار فـــي الحيـــاة الزوجية، وطلبت الطلاق، وساعدني أبي في الضغـــط علـــى

زوجي، فطلقني. وكانت أمواله لم تنفع في وقف إشهار إعسار أبي. ولم يبق بعدها طويلا. مات مفلسا. وترك لي الشهادة الجامعية سندا ضد الفقر. طبعا ظهر فهمي بمظهر الرجل الشهم، وقال إن هذه الأمور لا تهمه، فقد تعلم في أوربا أن الفتاة يمكن أن تكون لها علاقات سابقة قبل الزواج لكن بمجرد أن تدخل من باب الزوجية تخلص لزوجها. ووعدته أن هذا ما سيكون. طلبت منه أن استمر أعمل في الشركة، فقد يفكر يوما أن يطلقني، فأجد لا سند لي غير وظيفتي، أجد دعما أرتكز عليه في مستقبلي. وعدني أن يكون مؤخر الصداق مبلغا كبيرا يساعدني على أن يكون خميرة لمشروع شركة أكون أنا مديرتها.

تزوجنا واستقلت. ولم يعرف فهمي أن هناك علاقة كانت لي بأخيه خيري من قبل. ولم يحاول فهمي أن يعلن زواجه في الشركة ولا أن يدعو أخاه وأخته على حفل الزواج. وأظهرت استيائي من ذلك، لأن معني ذلك أنه يجد عارا أن يرتبط بي، الأمر الذي لا يريد إعلانه. ولعله كان يخجل أن يشهر الزواج لأنه يعتبرني من طبقة الفقراء أو على الأقل من طبقة عزيز قوم ذل. ولم يكن يعرف أن بإمكاني أن أبيعه واشتريه. وتأسف لي طويلا، ووعدني أن يعرفني بأخيه وأخته فيما بعد. وكان إعلان استيائي مجرد تمثيلية، لأني أدرك أنني لن أبقى طويلا مع فهمي، فإذا لم يكن الإشهار كاملا فمن السهل أن أفلت دون ضجة، بل إن فهمي نفسه لن يفكر أن يقول إن زوجتي هربت مني، ولا أعرف أين أجدها. فمادام أن غير الشاهدين لا يعرف عن ذلك الزواج شيئا فلن يسأله إنسان: أين زوجك؟..

جاء يوم كان مكفهر الوجه، وراح يقول:لقد رآنـــي أخـــي خيري معا.

- وما في ذلك؟

- يقول إنه كان على علاقة بك قبل زواجنا.

- وما في ذلك. ألم تقل إن المهم هو الإخلاص بعد الزواج.

- وقال إنه عرف أنك ثرية ولست فقيرة. وأن لـــك أولادا كثيرين. وتعيشين في قصر.

- إنها كانت مبررات أخترعها لكي يتركني. لأنه شـــعر أن مستواه أعلى من مستواي. وكما شعرت أنت أن مستواي أدنـــي من مستواك، لذلك أحجمت عن إعلان زواجنا خاصمت النـــور حفاظا على سمعتك.

- ماذا تقصدين؟

- اقصد أنك من البداية تشعر أننـــي دون طبقتـــك، لذلـــك طلقني ترتاح.

- أطلقك. على أن تبرئي ساحتي من كل مـــا علـــي مـــن التزامات.

- وأنا أعيش على الطوار أتسول.

– أنت ثرية لا يهمك شيء.

– أصدقت هذه الترهات التي يتفوه بها أخوك.

– لن أطلق. وما لديك من خيل أركبي أعلى ما فيه.

الحقيقة أنني شعرت أن هناك حملا في أحشائي. وأن علـــي أن أغادره. وتركت بيت الزوجية إلى غير رجعة. وعدت إلـــى مقري بشارع الأهرام.

يبدو أنك كنت قد أشرت إلى خيري من قبـــل عـــن موقـــع القصر. ويبدو أن فهمي أتصل بأخيه خيري وأبلغه أنني تركت البيت، وأنه ينوي أن يقتص مني لأني غادرته بلا أذن منـــــه، وأخبره خيري على الفور بالعنوان، ذلك الذي كنت أنت أبلغتـه به حتى يتأكد أنني امرأة مزواجة ألعب بالمال لعبا وأدعي خلو الجيوب منه ولي عديد من الأطفال من رجال آخرين.

فتحت مربية الأطفال أمينة باب القصر. إنها امرأة مثقفـــــة على درجة عالية من الحشمة والأناقـــة. تتكلـــم بكبريـــاء. لا تشعرك أنها خادم في القصر، إنما هي مديرة له. وهناك فـــرق كبير بين خادم ومديرة. كلمته وهي شامخة الأنف من خـــــلال نظارتها الكبيرة. وسألته: ماذا تريد؟

أجاب بعصبية زائدة: أريد السيدة دليلة شكري.

أجابت بشموخ: من دليلة شكري؟..

- سيدة هذا القصر.

- ليس في هذا القصر سيدة غيري.

- أليس هذا القصر ملكا للسيدة دليلة شكري؟..

- لقد كان.. قبل أن يفلس أبوهـــا واشـــتري منـــه.. هـــذا القصر.. لا لم اشتره.. بل رسا علي في المزاد العلني الـــذي أقيم بمناسبة إشهار إعساره.

- وأين هي الآن؟..

- من؟..

- دليلة شكري.

- أجئت تسألني عنها. وكيف أعرفها؟.. أنا حتى لم أرهـــا. لم أر إلا المرحوم والدها.

انحنى بأسف واعتذار وانسحب.

أتقنت أمينة دورها. وكنت أتوقع مجـــيء فـــهمي، فقمـــت بتحفيظها ما ستقوله. إن أمينة هي مستودع أسراري. يبدو أنها كانت تعلم أنني أعاني من عقدة نفسية لذلك أهرب من أزواجي الكثيرين حينما أحمل منهم. وكانت في حاجة ماســـة لتربيـــة أولادها بعد موت زوجها، فوافقـــت علـــى أن تكـــون مدبـــرة القصر، وتحتضن أطفالها الأربعة داخل القصر، ووجـــدت أن

تربية أطفال يتامى والإغداق على أرملة فيه الكفاية في الوفـاء بواجبي في زكاة المال. لم أكن أعرف أحدا أمنحه زكاة المال، فكانت تلك الأرملة وأولادها الأربعة.. من أجل ذلك قالت لـك صديقتك فيفي أن هناك جرمزا من الأطفال في القصـر، وأن كلهم أبناء وبنات دليلة شكري. ولو حاول فهمي أو كان ناصحا لذهب إلى الشهر العقاري، وتأكد من أن القصر ملـك دليلـة شكري، وأن أمينة كانت مدعية تخدعه.

ولم أنتظر حتى تواتي فهمي هذه الفكرة، فانتقلت بـالأولاد جميعهم، ومعي أمينة إلى قصر ابني عاطف من زوجي الأول. وكان لا يزال قاصرا وأنا الوصية على أمواله.

فضيـــلة

لقد كان خيري نقطة تحول في حياتي. تعرفت به في مكتب أحد المنتجين، وكنت أرافق رأفت المخرج السينمائي كظلـــه. ولما كنت أفيض أنوثة جذبت الرجل من أول نظرة. كان يريـد من المنتج أن يتكفل بإنتاج فيلم تسجيلي عن مصانعه يعـــرض في دور العرض السينمائي، ووافق رأفت أن يخـــرج الفيلـم. واستقبل رأفت خيري كثيرا في شقته الخاصة (وهي غير فيلا العائلة)، يستعرض معه الفيلم السينمائي وعلى مـــاذا ســوف يركز، وكثيرا ما ثرثرت معه، حينما ينتـــهيان مـــن مناقشـــة السيناريو. كما كان رأفت يستقبل خيري في شقته حيث أكـــون متواجدة دائما. ويوما قام رأفت ليستخرج زجاجة ويسكي مـــن مستودعه السري، مال علي خيري وهو يقول: أنا متيم بك.

قلت بسخرية: وأنا أعرف. أقرأ نظراتك.

قال بهمس:ماذا يحدث لو سرقتك من هذا المخرج القبيح؟ ..

– لن يحدث شيء. لكن سوف تغرم كثيرا..

– لن يكون أكثر من السرقات في مصنعي.

– ولم لا تعلم المشاهد في فيلمك التسجيلي بـــأنك تســـرق، فيسرع الناس بشراء منتجاتك ناقصة ما تخسره.

- لا سوف أعلنهم أنني سرقت الأنوثة والسحر والجمال.
اتفقنا على أن يسرقني بمجرد أن ينتهي من الفيلم الذي يخرجه رأفت. كنت قد طلقت حياة البغاء، ولو أني تخصصت برجل واحد. شيء أشبه بالزواج، لكن يختلف عنه في أن الرجال يتغيرون من حين لآخر. وهكذا استبدلت برأفت خيري. ولكن معه شعرت أن الحياة في ظل العشق حياة رخيصة مهينة. يمكن بين يوم وليلة أن يقتلعني من حياته، واصبح بلا رجل ولا مورد ولا سقف بيت. وقد حدث ذلك حينما اكتشفت أنه يحاول أن يتزوجك ويلفظ الغانية التي تعيش معه. يبدو أنه زير نساء يضع أنثى ويخلع أنثى بمنتهى السهولة، لذلك قررت أن أقيم مشروعا من الأموال التي تجمعت في يدي من السنين الماضية، ولم أكن أمسسها.

أخطرت أمي وأبي وأخي أنني تسلمت عقد عمل في دولة عربية. وأن العقد سخي للغاية. سألني أخي: ألا يطلبون لك حرم محرم؟.. قلت: لا. إنني سوف أحيا في سكن الممرضات. وفعلا استخرجت جواز السفر وشاهده والدي وأخي، وتحسسه أخي كأنما يرغب في أن يرافقني أو أجد له عملا وعلي أن استخرج واحدا له.

ولم يستطع والدي العملاق أن يقف في طريقي، فأنا لن أكون حرة نفسي في البلد الذي سأذهب إليه. إنما سأكون سجينة المستشفى والدار التي أقيم فيها، فلا رجال يمكن أن يطاردونني. ولا اتصال برجال. عقدة كل صعيدي أن تكون للمرأة صلة بالرجال، لأن معنى تلك الصلة أن المرأة غير شريفة. ولولا الحاجة لمنعني من العمل. لكني في مصر أعمل

مع رجال -كما يتصورون- فما الفرق بين مصـــر وأي بلــد عربي.

انقطعت صلتي بأهلي فيما عدا خطابات أرســـلها بـــالبريد بمبالغ معينة على صندوق بريد أنشأته لأبي في بريد الســـيدة زينب. وطلبت منه أن يدفع سنويا قيمة إيجار الصندوق حتـــى يظل مفتوحا للخطابات التي تصل مني إليه. وقد ادعيت أننـــي أعطي هذه الخطابات إلى زميلة لي تسافر إلى القاهرة كثـــيرا في مهمات لصالح المستشفي، وأطلب منها أن ترسلها إليه على صندوق البريد. ولعلهم صدقوا هذه اللعبة. ولعلـــهم اســـتغربوا أنني لم أرسل لهم عنواني.

افتتحت محلا في الزمالك. وبين الدقي والزمـــالك خطـــوة. والسيارة الخاصة تساعد على تقريب المسافات. لحظة وأكـــون في شقتي. وأخرى أكون في المحل. وتخصصـــت فـــي بيـــع الملابس المستوردة من باريس واليونان وروما ولبنان.

كنت أرفق صكا بالخطاب المختصر الـــذي أرســـله علـــى صندوق البريد. وطلبت منهم أن يغادروا ذلـــك الحـــق الـــذي يسكنون فيه في حي السيدة زينب وأن يستأجروا شقة فخمـــة. يتركوا الحي الفقير إلى حي الأثريـــاء.. ولمـــا تعرفـــت فـــي مصرفي الخاص بأحد الموظفين أرشدني أن أترك أمـــرا فـــي حسابي الجاري لأبي لاستلام قيمة الصك الشـــهرية. ولعلـــهم استطاعوا أن يتركوا الحجرتين وينتقلوا إلى شقة جديدة وتركوا عنوانهم الجديد لدي الصراف. وكنت قد أعلمتهم بهذه الخطـــوة ضمانا لعدم ضياع الصك، ويكون هذا الأمر نافذ المفعول بإذن الله، حتى أعود إلى القـــاهرة. وهكـــذا انتـــهت علاقـــة أبـــي

بالصندوق وتم قفله. وصار يتردد كل شهر على المصرف. وعرفت أين يسكن من البيانات التي كان يدلي بها للصراف من واقع بطاقته العائلية. ولكني أحجمت عن الذهاب إليهم.

لا يبعد تفكيرك في شأن الصراف الذي تعرفت به أن هنالك علاقة قامت بيني وبينه. إنه مجرد تعارف. ألتقي به في المصرف عندما أودع المال أو أسحبه. ويسهل لي الصرف بعيدا عن الصفوف، فقد كان المصرف في وسط العاصمة ومزدحم باستمرار. ولم افتح الحساب في مصرف بالزمالك أو الدقي حتى لا يحدث يوما أن ألتقي بالوالد أو الأخ.. وكنت أتعمد أن أذهب في منتصف الشهر حتى لا ألتقي بهما. الواقع أن بعد إنشاء المحل وشهرته، واهتمامي بعملي فيه. صرت راهبة في محراب الحياة. لم أشعر بحرارة الجنس الأخر من جديد. ولم يمسسني رجل. قطعت كل علاقة لي بالشهوة أو الرغبة في المتعة. سقطت الشهوة من جسدي. أصبحت طيفا يأكل ويلبس ويعيش فقط. لم أعد أفكر أن أرتبط برجل يهين جسدي ويستعبده ويستذله من أجل قليل من المال. يأكل لحمي ويلقي عظامي إلى سلة المهملات. لقد كان اكتشافي أن خيري يريد أن يلفظني ليتزوجك هو بداية تحولي. شعرت فعلا أنني قطعة قماش ينظف بها حذاءه. يقرف إذا اضطر أن يضعها في جيبه. ويوم عرفت أنه زهدك لفظته. وبدأت انشغل بمحل الملابس الجاهزة ذلك الذي أسسته، وصرت أستورد له الملابس من الخارج بنفسي أو بواسطة عاملات عندي. أعود حاملة عددا من الحقائب وأمر على الجمارك على اعتبار أن هذه الحقائب تخصني. وقد أدفع ثمنا زهيدا وقد لا أدفع حسب كمية البضاعة. ولم تكن هناك أهمية لدفع الجمارك فالمستهلك يتحملها في النهاية. ولا يبقى فستان في المحل لا يباع. ونساء

الزمالك من ثريات ودبلوماسيات وصاحبات أمــوال يتــهافتن على المحل.

نقلت مكتبي إلى الدور العلوي من المحل لأراقــب حركــة البيع بدقة. ويوماً دخل أخي تصحبه عروسه. لم يكــن ذلــك الجلف الذي عرفته. كان مهندماً وعروسه راقية رقي الطبقــة المتوسطة. كان يحاول أن يفرجها على البضاعة. رأيته مــن مكتبي. شاهدته. شعرت بالشوق يسري في ضلوعي والرغبــة في أن أحدثه، لكني ترددت. خفت أن ينفر في رأســه العــرق الجنوبي، ويبدأ بمحاسبتي بطريقة مستبدة غير كريمــة تؤثــر على المحل وعلى سمعته وسمعتي. وأرسلت إحدى العــاملات لتخبر صرافة المحل أن تجري له خصماً كبيراً. غير أنه وجد أن البضاعة لا تزال غالية الثمن. وكانت عينا خطيبته تكــادان تجحظان راغبة في الشراء لكن إمكانياته لم تكن تسمح. وتردد يوسف في الشراء. وخرجا بالفعل دون أن يشتريا شيئاً. يومــها حزنت فعلاً.

وقررت في ذلك الوقت أن أعود إلى مصر من ذلك البلــد العربي الذي كنت أعمل فيه. بلد مزعــوم بطبيعــة الحــال. والزعم أنه لا يعطي العاملات لديه إجازة زعم مبالغ فيه. كنت أريد أن أعود لأستقر. وأزعم أنني اشتريت ذلك المحل الــذي أملكه بالفعل من ذلك المال الوفير الذي ادخرته طوال ســنوات الغربة. هكذا كان يجب أن أظهر أمام أعين عائلتي.

كان لدي عنوان أسرتي، ذلك الذي تركه والدي لصــراف المصرف، وطفق يتركه في كل مرة يقبض فيها ما تركته لــه من مبالغ شهرية. لكن لما ذهبت إلى ذلك العنوان، اتضح أن لا

أحد باسم أبي هناك، وأن العائلة كانت تسكن من قبل لكنها تركت المنزل منذ زمن بعيد.. ولما راجعت المصرف علمت أن أبي قد توقف عن استلام المبلغ الشهري منذ وقت بعيد أيضاً.

دليـــــلة

أتعرفين في المرة الأخيرة التي هجرت فيها زوجي، حتـــى أخلد مع أولادي في قصر الزمالك. قصر ابني عاطف. تركـت الهرم بعد أن عرف فهمي مكان إقامتي. ولعله حضــــر مـــرة أخرى ليتأكد من صدق كلام خيري. ولعله لم يجد أحداً. بل لـم يجد من يدله إلى أين هاجرت صاحبة القصر. واستطعت بعـــد فترة أن أؤجر القصر لعائلة ثرية.. إيجاراً مرتفعاً بشـــرط ألا يكون لها الحق في البقاء إلى الأبد. وقد وسع السمسار مداركي بأن أؤجره مفروشاً.

ولما وضعت طفلتي الجديدة.. سوسن. صممــت أن أفتــش عن طبيب نفسي ماهر. ولم يكن أمامي غير طبيب معـــروف يظهر كثيراً في التلفاز، وله كتب مع باعة الصحـــف، وهــو أستاذ جامعي مشهود له بالكفاءة.

هناك دخلت العيادة. ورأيت المرضى. هالني ما هم فيه مـن بؤس. سحن مقلوبة. وما يقترفونه من حركات وهـــم جلــوس يثير الغثيان. وساءلت نفسي: هل أنا مثل هؤلاء المرضـــى؟.. وهل سيكون مصيري مثلهم لو كنت أعاني من مـــرض؟.. إن كل ما أفعله أنني أهرب من زوجي بعد أن أشـــعر بـــالحمل. وسألت الطبيب: هل سيؤول حالي ويصبـــح كحـــال هـــؤلاء المرضى القابعين في الخارج؟..ابتسم وقال: لا أبداً. إن حـــالتك ليست متأخرة. عادة ما يفكر الإنسان في اللجوء إلى الطبيـــب النفسي بعد أن تتدهور حالته. وسألني: مم تشكين؟.. قلت لــــه

قصة مختلفة قريبة من قصتي. إنني أتزوج الرجـــل وحينمـــا أحمل منه أطلب الطلاق أو أهجره فيطلقنـــي. وبـــدأ الطبيـــب يغوص في المـــاضي. جعلنـــي أروي لـــه حـــوادث حيـــاتي الأولى.ولم يكن فيها ما يستدعي التلفيق أو أخاف أن أرويـــه. حكيت له علاقتي بأبي ذلك الثري السكير. وترددت كثيراً وهو يسألني عن أمي. أجبت أنني لا أعرفها. بلا لم أرها. كل مـــا أعرفه عنها هو اسمها لأنه موجود في شهادة ميلادي. لكـــن لا أعرف أين تقيم؟.. ولم يحاول أبي أن يعرفني بها؟..بل يبـــدو أنه اقتلعني من حضنها أو خطفني في غفلة منها ولاذ بـــالفرار. ولم يعد يتصل بها بل لعله طلقها.

هنا ابتسم الطبيب وقال: هنا مربط الفرس يا دليلـــة هـــانم. أنت لا تدرين ما تفعلين مع أنه واضح جداً. أنت تحـــاولين أن تحمي أبناءك أو بناتك من آبائهم. تخشين أن تتكرر مأســـاتك. أن يخطف الأب ابنه أو بنته. ويفر منك. أنت تفرين منه قبـــل أن يفر بولدك أو ابنتك.

ذهلت لهذا التفسير، ووجدته معقولاً. أنا أخـــاف فعـــلاً أن استمر في كنف الرجل حتى لا يغدر بي. كيف لم انتبه إلى هذه الحقيقة؟..

قلت أسأله:هل تعتقد أنني شفيت بعد أن عرفت الحقيقة.

قال الطبيب: مشكلتك يا دليلة هانم أنك لا تثقين بالرجـــال. فقدت الثقة بهم. وتظنين أن كل الرجال هم مثل أبيك. ســـوف يخطفون أولادهم ويولون الفرار. الأمر يحتاج منك أن تثقـــي بالرجل وأن تعيشي معه بعد أن تضعي مولودك. وأن تســـتمر

الحياة ومعكما مولودكما سنة بعد أخرى. وسوف تجدين أن الرجل أهل للثقة والعيش معه طوال العمر.. ولن يكرر معك مأساة أمك مع أبيك.

خرجت من عند الطبيب على أمل أن يراني ثانية. لكن كنت على ثقة أنني لن أعود إليه. إذ شعرت فعلا أنني فاقدة الثقة بالرجال. والأمر يحتاج إلى ما يعيد لي هذه الثقة. ويبدو أن الأمر مستحيل.

فكرت أن أعود لفهمي وأن تتربى ابنتي سوسن في أحضانه، لكن لم يكن بمقدوري أن أترك عاطف وعفاف وجمال بمفردهم مع أمينة وأولادها -رغم أني تركتهم من قبل- وأتفرغ للزوج وأنسى الأولاد. وكيف اثبت لفهمي أن هؤلاء الأبناء من زواج حدث وأعقبه طلاق، والحقيقة أن هذا لم يحدث. حتى عاطف هجرت أباه ولم يطلقني. ومات ولازلت على ذمته، بل تزوجت عليه وهو لا يدري.

وقررت الإقامة في قصر الزمالك. بعيدا عن كل الرجال والأزواج السابقين في نظري. أتفرغ لتربية أولادي وأولاد أمينة أيضا، فصار في القصر ثمانية أطفال في عمر الزهور.

ووضعت هدفا أن أبدأ في البحث عن أمي، تلك التي لفظها أبي وسرق فلذة كبدها.. والتقينا في محلك بالزمالك. أتعرفين كنت أشك أنني رأيتك من قبل لكن أين؟.. كنت مختلفة اختلافا كليا عن البنت الفقيرة التي رأيتها في الحجرتين الكئيبتين. يوم كنت أطارد زوجي فهمي. ولم أكن قد اقترنت به بعد. يوم عمل ساعيا دون علم أخيه في شركته وهمت به.

ولعلك أيضا لم تعرفي أنني تلك المرأة التي كانت ستستولي على خيري منك. لكننا أصبحنا صديقتين بعد تـــرددي علـــى محلك أشتري منه. وأدفع لك بسخاء. لا تهمني النقود ولا يؤثر في أعصابي صرف المال ولا أشتري لنفسي فقط إنما لأولادي وأولاد أمينة وأمينة نفسها. كنت لا زلت تعملين بمفردك لذلـــك توثقت العلاقة بيننا سريعا، فليس أكثر من توثيق العلاقة مـــع الزبون غير الثرثرة. ولو كنت دخلت محلك بعد ذلك بسـنوات واشتريت منه ملابسي أو ملابس أولادي لما قابلتك، لأنك كنت تجلسين في الدور العلوي من المحل حيث الإدارة. ولـــو أنـــك كنت تتطلعين بنظرات ثاقبة إلى ما يجري بالدور السفلي مـــن المحل.

عندما زرتني أول مرة، جمعنا هدف واحد هو البحث عـــن الجزء الضائع من حياتنا. كان ذلك الجزء هو أمـــــي. وكـــان بالنسبة لك هو عائلتك. وقلت لك: لابد أن نضع خطة للبحـــث عنهم.

– وما هي هذه الخطة؟..

– إن أمامي خمسة وعشرين مليونا من الإنـــاث علـــى أن أبحث فيهم عن أمي.. ولذلك أعجز عن وضع هذه الخطة.

– ولم لا تبحثين في مكان مولدك.. ربمـــا لا تـــزال أمـــك تعيش في ذلك المكان.

– يا عزيزتي إن أبي استخرج شهادة الميلاد.. وهو الـــذي أملى على الكاتب العنوان. والعنوان مقر قصره في الهرم.

– أنا اعتقد أن أبي مات، لذلك لم يتردد على البنـــك لأنـــي انتظرت شهرا بعد شهر حتى يأتي لاستلام المبلغ المرصود لـــه في حسابي الجاري ، فلم يحضر. وكنت قد أوصيت الصـــراف أن يدقق في عنوانه. لكنه لم يحضر. ومن غير المتصــــور أن يأتي أخي لاستلام المبلغ بدلا منه، لأني لم أتـــرك مثـــل هـــذا الأمر للبنك من قبل.

– تصوري أنني لا أعرف حتى الآن أين تقيم أمـــــي. لقـــد أخفى عني أبي كل شيء. ولم أكـــن اجـــرؤ أن أســـأله كـــان مخمورا طول الوقت وإذا ما فتحـــت ســـيرة أمـــي يمكـــن أن يضربني. الخمر تحوله إلى وحش، لذلك كنت أتحشاه.

– ليس أمامنا إلا اليأس.

فضيـــلة

كنت اعرف أنك دليلة شكري، تلك التي كـــانت ستسـرق خيري من أحضاني. وليتك فعلت، لكن لم تفعلي. زهــد فيـك لماضيك الذي أخفيته عنه. والحمد لله أنك زهــدت فيــه. لقـد جعلني ذلك استمر في الشعور في المهانة، وأنني نكرة، وأننـي امرأة ضحت بشرفها لقاء مقابل زهيد. واستمرار خيري معـي جعلني اعتزم أن أطلق هذه الحياة الضالة، جعلني اعرف أنــه في أي لحظة سوف يلفظني مثلما تلفظ نواة المشمش. ولـو أن الفقراء يستفيدون من النواة في صنع "الدقة ". تلك التي نأكلها مع السميط، وتكون وجبة كافية تملأ البطن. إنها تضاف إلـى السمسم والملح والكمون وغيرها لتعطيه نكهة وتجعل الإنسـان يتذوق السميط بمتعة إلا إذا كانت النواة مرة فيطاح بـها فـي الزبالة. ويبدو أنني كنت النواة المرة التي ألقى بها خيري فـي سلة المهملات بعد أن أكل مشمشها. ولكن النواة أفلتت منه قبل أن يلقيها ويعصف بها.

لقد وطنت نفسي على قبول الأمر الواقع. لا رجـال بعـد اليوم. ولا بحث عن عائلة مفقودة. يمكن أن أترك للصدفـة أن تريني إياها وإلا علي أن أعيش حياتي.

دخلت نجمة الإغراء بصحبة زوجـها. جـاءت لتشـتري ملابس للسهرة من ذلك المحل ذي الصيت الذائع. كنـت أمـر على العاملات أتفقد أحوالهن. حينما رأيـت الدكتـور فـوزي يصحب زوجه. لم يحاول أن يكلمني أو يصـافحني. أدعـى

البراءة أمام زوجه. واشترى ما اشتراه. وسأل العاملة. ألا يوجد خصم خاص؟.. قالت العاملة: سل صاحبة المحل. ظنني في البداية أنني عشيقته السابقة جئت بالصدفة اشتري ملبسا. فوجئ أنني صاحبة المحل. قال؛ نطمع في خصم يا مدام. قلت كأني لا أعرفه وأعرف نجمتنا المشهورة: من أجل المدام فقط. أما أنت فلست شفيعا لها. ضحك وقال: وهو كذلك. ونجمة الإغراء تشعر بالفخر لأنها معروفة وهو طبيب النساء غير معروف. وقررت خصما خمسة وعشرين في المائة وسلمته الإيصال ليدفع. شكرتني نجمة الإغراء وصافحتني ممتنة.

جاء في اليوم التالي، وطلب مقابلتي. سألته: هل لاحظتما عيبا في الفستان؟..

قال: لا .. الفستان ممتاز.

ثم سكت قليلا وسألني: ألا تذكرينني يا فضيلة هانم؟..

قلت بسخرية: وهل ينسى المرء أعز الناس لديه يا دكتور فوزي. كنت أظن أنك الذي نسيتني. كذلك تجاهلتني بالأمس.

قال الطبيب المشهور: اعتقدت ذلك. كيف حالك يا فضيلة هانم؟..

قلت: ما هذه الهانم التي ترددها؟..

– احتراما وإجلالا لك.

- كلمني مثلما كنت تكلمني من قبل .

تجرأ وقال: أريد أن أراك.

سمحت له أن يقابلني في كازينو على أطراف النيـــل فـــي الزمالك.وهناك صافحته لدقائق وقلبي يخفق بشدة ثـــم جلســنا وهو يقول: لم أعرف فضلك إلا بعد أن تزوجت؟..

-كيف؟..

- لم أشعر أنني زوج إلا معك. أنت التي عرفتنـــي معنـــى الأنثى.

- وماذا كنت أفعل؟.. كنت مجرد امرأة. كلنا إنـــاث يـــا عزيزي.

- لا .. لا .. هناك فرق. لقد شعرت بالحياة معك. أما مـــع نجمة الإغراء، فلا إغراء ولا أنوثة ولا عذوبة.

- وماذا تريد مني الآن؟..

- أن يعود كل منا للآخر.

حاول أن يضع يده في يدي، غير أني سحبتها وقلـــت لـــه: ليس من حقك أن تضع يدك في يدي. ولقد انتهى الماضي بكـل آلامه وأفراحه.

راح يوضح لي قائلا: أريدك على سنة الله ورسوله.

- أستتزوجني؟.. ولم لم تتزوجني من قبل؟..

- كنت سادرا.. لا أدري أين مصلحتي؟!..

- وهل ستطلق امرأة الأمس التي تزوجتها على سنة الله ورسوله؟..

- يمكن أن أجمع بينكما. ويمكن إذا رغبت أن أطلقها. لا تتصوري إن أيامك معي لا تنسى. لا زلت أتذكر أيامنا معا. أسرح قليلا في ذكراها يوميا.. دون كلل.

قلت بوضوح: أنا لن أفيدك. لن أكون فضيلة بنت الماضي. سوف تجد امرأة أخرى. لن أتجاوب معك. لقد شعرت بالبرودة تسري في أوصالي. شعرت أن فضيلة ماتت تماما. وأن ما تكلمك الآن فضيلة أخرى.

- إذا أنت تصرين على ألا يعود أحدنا للآخر؟..

- إنني أشفق عليك من فضيلة الجديدة.

- أنت لا تدرين أن نجمة الإغراء خدعتني. إنها امرأة لا أنوثة فيها. امرأة متفرغة لأبنتها من زوجها الأول. امرأة لا تريد أن أنجب منها..

قاطعته قائلة: سأكون مثلها. وأنــــت أدرى بــأنني عقيــم. وسوف أكون متفرغة لمحلي. وقد فقدت أنوثتي الآن لم أعـــد صالحة لرجل.

تركني الدكتور فوزي مغتاظاً، لم يكن يصــــدق أن المــرأة التي منحها الكثير، تأنف الآن أن تتزوجه، ولم يكن السبب فيه، إنما هو نابع منها. لكن لم يصدق. لـــم يصـــدق أن عواطفـــي ماتت. وأن حبي لمحلي هو حبي الوحيد. ولو وجدت أســـرتي فسوف يكون حبي لها مثل حبي لمحلي. ولقد كرهت الرجـــال جميعاً. لم يعد في إمكان رجل أن يستثيرني، كأنمـــا شـــبعت. أصابتني تخمة. ولم أعد أفكر في أكل جديد. ولسوف يمتد ذلك إلى سنين. هكذا تنبأت وقت ذلك الموقف.

دليـــــلة

تعرفين أنت الموقف الذي سقط فيه. كان موقفاً حرجاً حينما جاء أبنائي يسألونني: أين آباؤنا؟.. ولم أكن ذلك المخمور الذي يطيح في الآخرين إذا كان السؤال لا يروقه. كنت لا أجـوؤ أن أسأل أبي: أين أمي؟.. كان من الممكن أن يهيج. يصفعنـــي.. يركلني.. يطيّر كأس الشراب في وجهي. عنيف حقـــاً. كنــت أتحاشاه. أما أنا فلست عنيفة، ولو أني عصبية المزاج. وكـانت تلك العصبية تتمخض عن صوت عال يختنق بعد قليل فيكــف عن النباح. كنت أتلقى السؤال منـــهم الواحــد بعــد الآخــر، فتصيبني الحيرة. ولا أجيب. كانوا يعرفون أنهم أربعة من آباء مختلفين. في حين أن مربيتهم أمينة كان كل أبنائـــها مـــن أب واحد. مات في عز شبابه وتركها ترعاهم. فقدته وهي صغيرة لكنها لم تتزوج. ويستغربون في أنفســـهم كيــف تكــون الأم مزواجة والأم الأخرى أرملة صغيرة لا تفكر في رجـــل. ولا يعرفون أنه اختلاف طبائع البشر.

سألتني: ما المشكلة؟..

قلت: المشكلة أنني لو عرفت كل ابن بأبيه أو بنت بأبيـــها فسوف يعرف الأبناء والبنات أنني على ذمة عدة رجـــال. أي أنني على ذمة ثلاثة رجال في وقت واحد فيما عدا الأول لأنـــه مات ولو أني تزوجت آخر وهو لا يزال الزوج السابق حيـــا. وقد أتعرض لإبلاغ الشرطة بشأن جريمة اسمها تعدد الأزواج، وأكون في نظر أولادي مجرمة بل قد يسارع الرجال ويطلبون

ضم أولادهم إليهم وبعد ذلك يهجرونني للأبد لصفاتي السـيئة. ماذا أفعل يا فضيلة؟

قلت وقتها: لنبدأ خطوة خطوة. من الذي مات مـن أولادك أبوه؟

– إنه عاطف. وهو يعرف ذلك جيدا.

– ومن الذي لا يزال على قيد الحياة؟..

– إنهم الثلاثة فارس وابنته عفاف. ومرسي وابنه جمـال. وفهمي وابنته سوسن. قلت عليك بإعداد ورقة عنهم الثلاثـة. تكتبين فيها كل ما تعرفين عنهم الآن. وسوف أساعدك علـى إلغاء الجرائم دون أن يشعروا.

– كيف؟..

– هذا عملي. ولا تناقشيني إلا بعـد أن تدركـي أن كـل الجرائم قد زالت. واصبح عنقك بريئا منها.

كانت إدارة أملاكي التي ورثتها عن أبي وأملاك ابني التـي آلت إليه بعد وفاة أبيه، قد عرفتني بأشخاص كثيرين سواء فـي محافظة القاهرة والجيزة أو مجالس مدن في الوجـه البحـري حيث الأراضي الزراعية. فضلا عـن أشـخاص فـي وزارة الداخلية. واتصلت بأحدهم أطلب منه تقريـرا عـن فـارس. فحسب خطتك كان يجـب أن نبـدأ بـالأقدم فـالأحدث مـن الأزواج.وجاء التقرير واضحا. تنازل فارس عـن ثوريتـه،

واصبح سلبيا، ولو أنه لا يزال على اتصال بالحزب الناصري المزعوم، وهو حزب رفضته الحكومة بإباء. بل هو نفسه رفضه في بادئ أيامه. ويعمل لدي أحد المحاسبين القانونيين ممن كانوا لهم ضلع في المؤامرة المشهورة ضد نظام الحكم.وقد برئت ساحته. ولما خرج فارس من السجن، ألتحق بالعمل لدى ذلك الرجل. ويبدو أن ذلك كان اعترافا منه له بالجميل إذ ساند الثورة المضاد في محنتها.

فضيـــــلة

لقد أخذت منك المعلومات عن فارس. وتحركت بســـــيارتي إلى مكتب المحاسب القانوني المعروف حيث يعمـــل فـــارس. دخلت المكتب فوجدته رائعا قد كلفـــــه صاحبـــه كلفـــة تثـــير الإعجاب. المرايا في كل مكان تعطي للمكـــان بعـــدا جديـــدا. المقاعد وثيرة. التحف تملأ الحوائط كأنها من صنـــــع فنـــانين عالميين.

قابلت صاحب مكتب المحاسبة ، ذلك الوزير السابق الـــذي ذكرته لي. كان وجهه أحمر كنجم سينمائي لم يجرد وجهه مـــن الألوان. ولو أني أرجعت ذلك إلى بياض وجهه الناصع أو إلى تجرع الخمر باستمرار. ناشدته أن يكلف أحد المحاسبين بإعداد نظام محاسبي لمحلي المتواضع، حتى لا أكون في بؤرة نظـــر مصلحة الضرائب، فيضع مفتشوها قيـــم الضرائـــب جزافـــا. ووعدني خيرا. ولما كان فارس متميزا في المكتب، لذلك طلبه بالهاتف أن يوافيه بالحضور. وطلب منه أن يقوم معي لـــيرى المحل، ويضع النظام المحاسبي الأمثل له.

ركب بجانبي السيارة، وأنا أشعر أنه يتأملني كثيرا. يبدو أنه بعد أن عاش معك قليلا، لم يتمكن من أن يذوق امرأة بعـــدك. كان وجهه يوحي بالحرمان الطويل. سألته:هل أنت متزوج؟ ..

قال:لا . أنا أعزب.

قلت أسخر منه: يا رجل. يبدو أنك لا تقول الحق. يبدو أنك عرفت النساء من قبل.

ارتبك ثم أعترف قائلا: نعم .. نعم .. كنت متزوجا لكن زوجتي هربت مني.

– ما السبب؟..

– لا أدري حتى الآن. فجأة اختفت من حياتي. هجرتني بلا سبب.

قلت أضحك: لابد أن هناك في طبعك ما يجعل النساء ينفرن منك.

– أبدا.. أبدا.. أنا رجل صالح.. ثوري كنت. لكن بعد الزواج التزمت جادة الصواب. حقا بعد أن هجرتني عدت للثورية من جديد لكن حصلت على جزائي سنين طويلة في السجن. لكن تبت الآن.. والله تبت.. عن السياسة.. وعن الاشتغال بها.. أو حتى التفكير فيها.

قلت مبتسمة: يبدو أن الجزاء كان قويا..

ابتسم وهو يقول: نعم.. نعم.. إن مجرد حرمان الإنسان من حريته جزاء قاس للغاية. إنني أصبحت أومن الآن أن بلاد العالم الثالث لا يجوز فيها التطلع إلى المطالبة بالحرية وإلا أصبحت وبالا على من يطالب بها.

ووصلنا إلى المحل. وصعدنا للدور الثاني. وطلبت من محاسب المحل أن يضع بين يدي الأستاذ فارس كل المستندات الخاصة بالعمل. نظر إلى المستندات وقال: يبدو أنه سيكون أمامي عمل كثير.

– خذ راحتك. نحن لن نقفل المحل..

– أقصد سوف يكون أمامي أيام..

– تعال في أي وقت تشاء. وضع النظام المناسب وراقبه. ثم قيمه وعدله وأضف إليه كما تشاء..

كنت لم أحصل على الإعدادية، لكن خبرة التعامل مع الزبائن والعملاء، وأصحاب المحلات في لبنان وأثينا وروما وباريس ولندن، نمت مداركي. وعرفت أسرار التجارة وشعابها المرجانية. وكيف أتفادى الاصطدام بها. وكان يظن أن حسابات المحل غير منتظمة، واستغرب أنها لا تحتاج إلى تنظيم وتعديل كبيرين. كان لا بد أن يدلي بدلوه في أسلوب العمل وطريقة الحسابات، وإلا فقد المكتب أجره على ذلك، لكن كان لي هدف أن أبقيه أكبر فترة ممكنة بجانبي. نتكلم.. نتكلم.. ونتكلم.

ولما انتهى من واجب اليوم الأول، طلبت منه أن يتغدى على حسابي الخاص. قلت: ما دمت أعزب.. أو مهجور الزوج.. فلن تتردد في قبول دعوتي.

وعلى مائدة الطعام في الشيراتون أفاض فارس فيك، وصف دليلة الحبيبة التي هجرته. وعلل هجرانك له بأن جنونا مفاجئا اجتاحك. ولو أن عقلك رد إليك لكنت قد عدت إليه. لكنك لم تعودي. وقد يكون سجنه حال بينك وبين العودة إلى أحضانه. فمن أين لك أن تعرفي مكانه بعد السجن. بل لعلك لم تعرفي أن حكما صدر ضده في ثورة ١٩٧١ المزعومة. المهم أن المعتقل -أو السجن- حال بينك وبينه. بل لو لم يكن قد سجن فلن يتسنى لك أن تعرفي عنوانه، لذلك فقد انقطع الاتصال بينكما. وفقدك إلى الأبد. كان يفترض أن الحكم بالسجن الذي صدر ضده وآخرين هو حكم بالاعتقال. كان الرئيس يريد أن يبعده والآخرين عن ساحة السياسة والتدخل فيها حتى تموت المعارضة ضده ، فتم تلفيق الاتهام لهم. وإذا كان الكبار ضالعين في المؤامرة فما ذنب الصغار -أمثاله- إنهم يأتمرون بأوامر الكبار. استمر فارس يعمل في تنظيم حسابات المحل. واستمرت علاقتي به. جاءت العلاقة سهلة ميسورة. غداء بالصدفة. عشاء بالصدفة. دعوة للسهرة في بيتي بالصدفة. لم يكن مدعوا غير الفتيان والفتيات الذين يسافرون لشراء البضاعة من الأسواق العالمية ويعودون بها ليزودوا بها محلي. وكانوا يدفعون الجمارك. لا تهريب عندي. وقد يفلتون ببعض الملابس. وتقيد على أنها متعلقاتهم الشخصية. وقد لا يفلتون. ويعتبر رجال الجمارك أنها بضاعة تستوجب دفع رسوم جمركية عليها، فيدفع الشاب أو الشابة وأحاسبه عليها فيما بعد. لا أهمية للجمارك فإن قيمتها تحمل على البضاعة في محلي. ويتحمل المستهلك كل النفقات حتى تذاكر السفر ويدفعون ولا يتذمرون.

ولما انتهت السهرة انصرف الجميع. وبدا فارس يتشـــجع. وتقدم مني وسألني: هل تتفضلي بالزواج مني؟

سكت. ثم سأل: ما المانع؟..

قلت بهدوء: هناك مانع واحد. أنك متزوج.

قال: ولكن الزوجة لا تعيش معي. هجرتني.

قلت: يبدو أنك كنت متيمـــا بـــها. فـــإذا ظـــهرت ونحـــن متزوجان، فسوف تلفظني وتعود إليها.

– ذلك كان منذ سنوات بعيدة، فكيف أعود إليها؟..

– ألا تعرف المثل الذي يقول القديمة تحلو ولو كانت فـــي الوحل.

– إذا ماذا تريدين من شروط؟

– أولا طلقها. وأرى وثيقة الطلاق بعيني. وانتظـــر حتـــى يصبح الطلاق لا رجعة فيه.

اضطرب فارس. يبدو أن هناك أملا دفينا كان يداعبـــه أن يلتق. بك من جديد. لكنه وأد هذا الأمل. وذهب إلى المـــأذون وبيده وثيقة الزواج، وطلق دليلة وأرسل ورقة الطـــلاق علـــى شقتها في ذلك البرج الذي عاش فيه معا. وعاد إلـــي بوثيقـــة النصر.

لم أكن أقوى أن أتزوج من فارس ، لذلك لم أعـــترف لـــه بشيء. كان الهدف هو أن احصل على وثيقة الطلاق لأعطيـــها لك كهدية، ولو أنها وصلتك عن طريق البواب. فالبرج خـــلص بك وهو يتسلم ما يخص صاحبته. ويبدو أن فارس لـــم يجـــر وراء معرفة ما إذا كانت وثيقة الطلاق وصلتك أم ارتدت إلـــى المأذون مرة أخرى. فقد كان يعرف أنـــك اســـتأجرت الشـــقة مفروشة وأنك تركتها كما قال له البواب وكما قلت لـــي إنـــك لقنت البواب بذلك، لكنه إجراء لابد منه.

انتظرت ثلاثة شهور حتى يصير الطلاق تاما، فقـــد كـــان الطلاق رجعيا. يمكن إذا ظهرت أن يعيـــدك إلـــى عصمتـــه، خاصة إذا عرف أن له ابنة منك تدعي عفاف. ولمـــا انتـــهت الأشهر الثلاثة حملت إليك الوثيقة في قصرك المنيـــف. ذلـــك الذي يقع بين أبراج متعددة صامدا لا يقوى أحد على هدمـــــه. وقلت لك كما يقول أنور وجدي في فيلم أمير الانتقام: الأول.

وقد دفعت الوثيقة بيدي بقوة كأنها الخنجر الذي يمسكه بطل الفيلم. وفوجئت أنك تعرفين أن الطلاق قد تم. لقد سلم البـــواب الوثيقة لك.

دعوت فارس على الغداء في شقتي بالدقي. لا زلت أحتفـــظ بها ولم يطالبني الدكتور فوزي بثمنها بعد أن رفضته زوجـــا. وكان فارس لا يجرؤ أن يطلب الاقتران بي، لأن من شروطي أن يكون الطلاق لا رجعة فيه. وبعد انقضاء عدتك كان ذلـــك الغداء. وكانت علاقات العمل قد انتهت بتنظيم حسابات المحـــل وحسابات الضرائب والجمارك. وجاء وفي رأسه فكـــرة هـــو

أنني سألبي النداء وأوافق على الزواج. كانت المماطلة بسبب أنني أريد أن أفهمه وأن يفهمني. أن أعرفه عن قرب ويعرفني عن كثب. لم يتجرأ يوما أن يمسك يدي أو يحاول أن يغتصب قبلة. واحترمته بالفعل. كان مثال الرجل الوقور المحترم. ولم أحاول أن أضمه إلى أو أطبع قبلة على خده عند اللقاء أو احتك به. كان الجنس قد مات في صدري، وحفرت له قبرا، وداريته فيه دون كفن. مات باردا ضعيفا هزيلا.

في ذلك اليوم قال لي: هل أطمع اليوم في أن تقبلي الزواج مني؟..

وما كدت أتكلم معه، حتى رن الجرس. وجاء الخادم تقول: السيدة دليلة وابنتها يا سيدتي.

ذهل فارس من عبارة الخادم. قلت لها: دعيهما يدخلان، فالأستاذ فارس ليس غريباً.

لعله في ذلك الوقت كان يتساءل: هل هي دليلة مطلقتي أم امرأة أخرى اسمها دليلة.

دخلت أنت وعفاف إلى حجرة الاستقبال.

ترددت دليلة في الدخول حينما رأت فارس. وارتبك فارس حينما شاهدها. إنها الزوجة الهاربة. كنت تعرفين أنك ستجدينه عندي، وسيشاهد ابنتك عفاف معك. وستقولين لها حتى تهدأ: هذا هو أبوك يا عفاف. صافحته وصافحتني. وكذلك قامت

عفاف بالمصافحة. وجلسنا جميعا وقلت أعرفك به: هذا الأستاذ فارس المحاسب القانوني للمحل الذي أملكه.

قالت دليلة: تشرفنا.

تصنعت أنك لا تعرفينه في البداية. قال يذكرك بنفسه: ألا تذكريني يا دليلة هانم.

قلت: أذكرك جيدا. ولكن استغربت أنك تجاهلتني. سألت فارس: أتعرف السيدة دليلة؟..

قال فارس: نعم.. هي السيدة التي كلمتك عنها؟..

قلت باستغراب: معقول؟.. يا للصدفة!!..

توجهت دليلة إلى عفاف وهي تقول لها: كنت يا عفاف قد سألتني: أين أبوك؟.. هذا هو أبوك! ..

نهض فارس مفزوعا وهو يقول: ابنتي.. هذه ابنتي؟..
قلت: من لحمك ودمك.

سألك: وأين كنت طوال ست عشرة سنة؟.. ولم أخفيتها.

قلت وأنت تضبطين أعصابك: ظروف.. ظروف مرضية حالت دون إطلاعك على الحقيقة. ثم أنا لا أعرف لك عنواناً.

لم تكذبي فإن مرضك النفسي.. يدفعك إلـــى الفـــرار مـــن زوجك حينما تشعرين بتحرك النطفة في أعماقك. ولم يكن قـــد عرفك بأهله أو سكنهم حتى يمكنك الاتصال بهم أو به.

وقفت عفاف تستقبل أباها. ضمها إليه والدهشة تعتصـــــره، وهو يقول: لا أصدق.. لا أصدق. أن لي ابنة بـــــهذا الطـــول وبهذا الجمال..

ولما انتهى لقاء الأب بابنته. مضينا إلى حفلة الغداء. لم يكن بها غيرنا. وتكلمنا كثيراً عما يخص عفاف. تعليمها.. عاداتها غرامها بالقراءة. بنت نجيبة . تتعلم في المـــدارس الفرنســـية. متقدمة في دراستها. وعلاماتها لا تقل عن جيد جداً. وأن مـــن المنتظر أن تـــدرس العلـــوم الهندســـية، فـــهي بارعـــة فـــي الرياضيات. وكان فارس مشدوهاً بابنته فخوراً بها. مثلما جئت انسحبت. انسحبت دون أن يعرف فارس أين تســـكنين. وأيـــن تقيم ابنته. وهل ستكون تحت ولايته. وأن تقيم معه أم ســـتبقى معك أنت الحاضنة.

سألني بعد أن غادرتما الشقة: ماذا عن مشروعنا؟..

– أي مشروع؟..

– مشروع الزواج..

– اعتقد أن عليك أن تسعى إلى العودة إلى زوجك.. أقصـــد مطلقتك خاصة أن لك ابنة منها.

-كيف أعود وأنا لا أعرف عنهما شـــيئاً. ولا أعــرف إذا كانت دليلة ستقبلني من جديد أم لن تقبلني.

- ناقشها في كل ذلك.

- وأين تقيمان.

- أنا لا أعرف لأنها تزورني في محلي.. وفي بيتـــي ولا أجد وقتاً لأزورها في بيتها. نادراً ما أزور أحداً.

دليـــــلة

لا تتصوري كم كان قلبي يتهدج وأنا صاعدة إليك، حتى أن عفاف سألتني: مالك يا ماما ؟.. قلت لها: لا شيء. ضربـــات قلبي تتزايد. لا أعرف السبب. ولعلها عرفته لما دخلنـــا إلـــى شقتك. أدركت أن أمها تحدس جيدا. وأحست بأنـــها ســتلتقي بشخص هام لديها، لذلك أسرعت دقات قلبها. ولم تكن تعــرف أنني كنت مبيتة النية بينك وبيني أن تلتقي البنت بفارس أبيـــها في شقتك. كانت لا تزال العقدة تسيطر على. ألا وهي إخفـــاء الابن أو البنت عن أبيه حتى لا يخطفه مني ويحرمني منه إلى الأبد مثلما فعل أبي معي ومع أمي. وحرمني منها ولا أمل في أن أراها. لقد تعمدت أن أذيقه من رحيق ابنته. وحرمته من أن يعرف مكانها. وهكذا اتفقت معك ألا تبلغيه به إلا بعد أن ننتهي من الآخرين.

لكن في هذه الأثناء ظهرت أمامي حالـــة جعلتنـــي أشــعر بالهوس. جاء ابني عاطف يسألني مبلغا كبيرا من المال. لم؟.. لا يجيب إنما يصر على طلبه دون إيـــداء أســباب. صديقـــه محسن ابن أمينة، ذلك الذي تربى فـــي قصـــري، وترعـــرع، وأدخلته نفس المدرسة التي دخلها، لم أتركه للتعليم المجـــاني، ذلك الصديق رفض أن يذيع سر صديقه. ســـألته: لـــم يريـــد عاطف ذلك المبلغ الكبير؟.. أجاب: لا أعرف.

وعاد من جديد يطالبني بالمبلغ. قال بجرأة لم أعهدها فيه:

– أنا لا أطالب أن تهبيني من نقـــودك. إنمـــا أطـــالب أن تعطيني من نقودي.. نقودي التي تركها أبي.

قلت له: هذه الأموال التي تركها أبـــوك تخضـــع لمراقبـــة المجلس الحسبي. وما تطلبه يفوق المصرح به.

التفت إليه وسألته: هل أنت مدمن؟..

ذلك هو الداء الذي اصبح معروفا للجميع خاصة بين أبنـــاء الأغنياء. وتدخلت أمينة وكانت حاضرة الحديث قائلة: ابنـــي لا يمكن أن يقترف تلك الموبقة!..

استدرت لها غاضبة. إنها تريد أن تســـتولي علـــى أولادي مثلما استولي أبي على. وحرمني من أمي. وها هي امرأة مـــن عامة الشعب تريد أن تحرمني من أبنائي. غضبت واســـتغربت غضبي وتماديت في غضبي. كانت كثيرا ما تقـــول أمـــامي: أبنائي. وتقصد بها أولادي. ولم أكن أعيرها التفاتا. لكن مقابلـة فارس الأخيرة جعلتني أتوجس خطرا. إنه قد يطالب بالوصايـة على ابنته عفاف ويأخذها مني. وقد انتهت فترة الحضانة. وها هي امرأة تريد أن تأخذ مني أولادي. قلت لها: هؤلاء أولادي. ليس لك أولاد هنا إلا أربعة آخرين. وأنا أسأله فلا تجيبي أنـت عنه. إنه ذو لسان ولديه سمع وعليه أن يجيب.

وطأطأت أمينة رأسها، كأنما تعرف الـــداء النفســـي الـــذي يلازمني. وفي ذلك الوقت رفض عاطف الإفصاح عن السبب. وانتحت أمينة جانبا بمحسن، فلم يجد بدا من الاعتراف. أمينـــة تعرف عمق الصداقة بين عاطف ومحسن. يذهبان معـــا إلـــى

المدرسة الإنجليزية. يقضيان الوقت في الدراسة. يعودان معـــا بل يأكلان معا. ويستذكران الدروس معا كأنهما شخص واحـــد مزدوج الشخصية. أو شخصية واحدة ذات جســـدين. وكـــان يختلفان فقط في حب عاطف للأدب والقراءة المتعمقة. وحـــب محسن للموسيقى والفن عموما خاصة التمثيل. استطاعت أمينة أن تجعل محسن يعترف. إنهما أحبا معا أيضا أختيـــن. أحـــب محسن الكبيرة وأحب عاطف الصغيرة. وأصبحوا يلتقون فـــي يوم العطلة الأسبوعية. يتنزهان في الحدائق العامة.. في نـــهر النيل.. في الهرم. والفتاتان ابنتا رجل فقير معدم. لذلك كان من الغباء إعلان حبهما. لأنهما يعرفان أنني لن أرضى عنه خاصة بالنسبة لعاطف. وكانت الفتاتان لا زلتا تتعلمان حينما اصطـــدم أبوهما بسيارة ففقد النطق ثم فقد الحياة. ولم يحصلا من ســـائق السيارة على تعويض بسبب أن الخطأ كان فـــي جـــانب الأب. وهكذا كان على عاطف -وهو الثري- أن يقف موقف شهامة من هذه العائلة المنكوبة. أراد أن يمدهما بمال وفير حتـــى لا يشعرا بوطأة الصدقة في كل شهر إنما على الأقل كل سنة.

جاءت أمينة تهمس لي بالقصة. وكان الغضـــب لا يـــزال يجتاحني كأنه عاصفة هوجاء. وازدادت سرعة رياح الغضـــب في داخلي. ونظرا لضيق المكان فقد تحولت الرياح إلى دوامة. سألتها: من قال لك تلك القصة؟.. أجابت وهي لا تزال تـــهمس تريد أن تمتص غضبي: ابني محسن. إنه يحب البنت الكـبرى. صرخت قائلة: حب.. حب.. لا يوجد شيء اسمه الحب. إنـــها مصالح. إن الفتاتين تريدان أن تبتزاه. قالت أمينـــة بضعـــف: إنهما لا تعرفان أن السيد عاطف ابنك (وضغطت على الكلمـــة الأخيرة) ثري. وهو لم يعلن فتاته بذلك كما لم يعلنها أنه يريـــد أن يهبها مالا.

انزاح الغضب قليلا. قلت سرعة الرياح. وانطفأت الدوامـة. وشعرت أن أمينة خير مرشد لي. سألتها: وما العمل الآن يـــا أمينة؟.. قالت: فهمت أن الفتاتين في المدارس الثانوية. ويمكـن لو أحسنت إليهما دون أن يدري عاطف بإحسانك أن تجعلاهمـا يستكملان تعليمهما وأن تتصدقي على الأسرة دون أن تشعر.

ونهضت من فراشي مفزوعة وقلت لها : إذا تريدينـــي أن أعاونهما حتى يتخرجا من الجامعة. ويتقدم عاطف ليناسب هذه الطبقة الدنيا. إذا كنت لا تمانعين أن يناسب ابنك هذه العائلـــة الفقيرة فأنا لدي ألف مانع بالنسبة لأبني. قالت أمينة بخضـوع: أمرك.. ولو أني كنت أسمعك تسألين عـــن أمـاكن الفقـراء لتتصدقي عليهم بمالك رغم أنك غمرتنـــي بعطفـك وكرمـك وحنانك أنا وأولادي طوال هذه السنين. وكان ذلك كافيا. كـان يكفي ما تتصدقين به علينا. لكنك كنت تبحثيـن عـن هـؤلاء الناس، لتصنعي فيهم المعروف.

ذهبت وجئت داخل الحجرة كلبؤة تبحث عن حـل للفـهود الصغيرة التي ضعف أسدهم الأب وانـزوى واضمحـل. ثـم سألتها: أئتني بعنوان الفتاتين.

تركت السيارة عند طرف بولاق، لأبحث عن مـنزل هـذه الأسرة المنكوبة. كيف تعرف عاطف علـــى هـذا الوسـط.. ومتى؟.. أقاده ابن أمينة إلى ذلك الحي. نعم هو الـذي قـاده، فالوسط الوضيع يحن إلى الوسط الوضيع. وكيـف لا تقوليـن يادليلة أنه مثلك. فأنت كنت تعشقين فهمي والد ابنتك سوســن وهو متخف في صورة ساع في الشركة. لكنه كان نظيفا راقيا.

لم آخذ الفتاتين بجريرة أبيهما. وهل الفقر جريـــرة يـــا دليلـــة هانم؟.. إنه ليس عيبا. وإذا انتشلت الفتاتين من بـــئر العـــوز العميقة، فقد أنقذتهما من مصير مظلم. وخير ما يتصـــدق بـــه الإنسان أن يعلم الآخرين أو ينفق على تعليمهم.

كنت قد عرفت من أمينة أن الرجل كان يعمل فـــي شـــركة بعيدة عن بولاق، وكان يعمل عملا كتابيا. كان نصف وقـــت اليقظة يضيع في المواصلات بين القليوبية وبولاق. والنصـــف الآخر في العمل. ثم يخلد إلى النوم زهاء ثمانية ساعات. فلـــم يكن لديه وقت لمراقبة ابنتيه وتصرفاتـــهما. اخـــترعت أنني زميلة له في العمل. أشرف على صنـــدوق اســـمه صنـــدوق الزمالة، يقوم بدفع مبالغ دورية لورثة المصابين أو المتوفيـــن في حوادث خارج العمل. على أن يدفع المشترك قسطا شهريا لا يرد. اندهشت الأم مما أقول. وقالت: لم يقل لي عبد الصمـــد ذلك أبدا. قلت: حقا.. لكنه اشترك اشتراكا واحدا واستحق بذلك أن يعاونه الصندوق. دفعت للمرأة مبلغا ووعدتها أن يصلـــها ذلك المبلغ كل شهر. طلبت منها أن تكتب لي عنوانها واسـمها بالكامل حتى أرسل لها المبلغ شـــهريا. خجلـــت مـــن نفســـها وأجابت أنها لا تعرف القراءة والكتابة. وأن علـــى أن أنتظـــر حتى تأتي ابنتاها فتكتبان العنوان. وكانت لا تدري أين تســـكن وما هو عنوان ورقم بيتها بالضبط.

لا أدري هل عرف عاطف الحقيقة . فقد كف عن المطالبـــة بذلك المبلغ الكبير. ولعل محسن أقنعه أن يدفع لفتاتـــه مبلغـــا شهريا بدلا من المبلغ الكبير الذي طلبه مني. حتى يتحرر مـــن سطوتي. ويتقدم ليتزوجها يسنده المال مـــن ناحيـــة وتســـنده

الشهادة من ناحية أخرى. لقد قالت لي أمينة أن الولدين متيمان بالفتاتين وأن ليس من السهل أن يقتنعا بالابتعاد عنهما.

رن جرس الهاتف في قصري، بينما كنت أتناول الشـــاي. وكانت تقف على مقربة مني أمينة رهن إشارتي. كنـــت قـــد ارتحت نفسيا حينما بدأت أتصدق على المرأة الفقيرة وابنتيـــها. ورأيت البسمة تعود إلى وجه ابني. وعاد من جديـــد يســـتذكر دروسه في السنة النهائية من الدراســـة الثانويـــة الإنجليزيـــة. وكنت قد استلمت العنوان من المرأة في اليوم التـــالي تفاديـــا لرؤية الفتاتين. وصرت أرسل لها الحوالة الشهرية على ذلـــك العنوان تفاديا لرؤيتها وحتى لا يشعرن بوقع الصدقة الأليم.

قال المتكلم: أهلا.. كيف حالك؟..

– من المتكلم؟

– أنا فارس زوجك يا مدام دليلة .

– لا.. لست زوجي.. لقد طلقتني. ولدي الوثيقة الدالة علـــى طلاقي.

– كيف وصلتك؟

– أرسلها المأذون إلي على عنواني في البرج. ولما كـــان البواب يعرف مكاني فقد استلمها وسلمها لي.

– ولكنه لم يقل لي أنه يعرف مكانك؟..

– أنا نبهت عليه ألا يقول عن مكاني لأحد.

– أريد أن نعود إلى بعضنا البعض.

– لا.. لا.. لقد انتهى ذلك الزمن ولا رجعة له.

– إذا أريد أن أرى ابنتي.

شعرت بهزة تعتريني وأنا أقول له: تفضل.. شاهدها وقتما تشاء. هل تعرف البيت؟..

– تقصدين.. هل أعرف القصر؟ ..

شعرت أنه كان يراقبني. قلت: أنت تعرف كل شيء.

– نعم. لقد تأكدت أنك صديقة فضيلة. ورأيتك يوما تخرجين من محلها في الزمالك. ولحظي السعيد كنت تمشين على قدميك. حقا المسافة بين وسط الزمالك وطرفها طويلة. ولكن على ما يبدو كنت تستمتعين بالمشي الطويل. عرفت مكان قصرك. وعرفت من صاحب القصر. غريب أن يبقى اسم صاحب الهاتف حتى الآن رغم أنه متوفى. أكان ذلك الرجل زوجك.

–نعم.. أنا لم اكذب عليك. لقد تزوجتني وأنت تعرف أنني مطلقة. وما لم تعرفه أن الرجل مات وآلت إلى ابني منه كل ثروته وأقمنا لذلك في قصره.

– أنت الآن غير متزوجة فما رأيك لو عادت المياه إلى مجاريها إلا إذا كنت متزوجة من آخر.

– لا.. لا.. أنا الآن مطلقة.. مطلقة بعد ست عشرة سنة زواج على الورق.. طلقني من أجل امرأة. طلقتني من أجل أن تتزوج من فضيلة.

– أكاد أشم رائحة مؤامرة في الموضوع.

– أي موضوع؟..

– طلاقي منك وارتباطي بفضيلة..

– ها هي عندك.. تزوجها إذا أردت أنا لا أحجر عليك ولا عليها.

– ترفض الزواج لأن لي ابنة منك.

– ولم ترفض؟.. البنت معي ولن تضايقها في شيء.

– هكذا هي ترى. هذه أسبابها، فلم لا يعود كل منا إلى الآخر.

- أنا متفرغة الآن لتربية ولدي وابنتي.

- وما رأيك لو أنني ضممت ابنتي إلى ؟..

فضيـــــلة

أعتقد أنني بلغت مرفأ مليئا بالصخور والأحجار. إن مطالبة فارس في اعتقادي جاءت مبكرة. حركت فيك العقدة القديمة أن تؤخذ أولادك منك عنوة ولا تريهم أبدا. بل إن رؤيـــة فـــارس لأبنته كانت مبكرة أيضا. كان علينا أن نبقى حتى تنتهي مــــن كل الأزواج وبعد ذلك نعرض بضاعتنا عليهم. أولادك منـــــهم بطبيعة الحال.

حينما طلبتني في المحل وأخبرتني أن أعود إلـــى فـــارس، حتى ينشغل بي عن المطالبة بابنته منك. لكني قلـــت لـــك: لا أريد أن اخدع الرجل مرتين. إن ما استشفه مــــن كلامــك إن الرجل شم رائحة المؤامرة التي دبرناها معا. وعلى العموم لـــم لا تتظاهرين أنك موافقة على العودة زوجين فينشـــغل بذلـــك الأمر عن المطالبة بضم ابنته إليه. والآن آتيتي ببيانات الرجل الثاني الذي تزوجته. قلت لي: إن البيانات جاهزة وما عليك إلا أن تأتي لأخذها.

كان عنوان السكن موجودا في حي الســـكاكيني. وعنـــوان الشركة التي يعمل بها متاحا في وسط المدينـــة. ذهبـــت إلـــى الشركة. كنت أعرف أنه مهندس إنشاءات وأنه يصمم وينفـــذ بناء المساكن بالشركة. كنت أريد أن أتفق معه على أن يبنـــي لي فيلا في ٦ أكتوبر حيث أريد أن أشتري الأرض ثم ابنـــي عليها. حيث الهواء العليل والبعد عن التلـــوث. حيـــث الجنـــة

البعيدة عن زحام القاهرة. وإذا سألني من الذي دلنـــي عليـــه. سأقول هذا سر وعدت من دلني ألا أبوح به.

سألت عن المهندس مرسي في الشركة، فلـــم يدلنـــي أحـــد ذهبت إلى رئيس شئون العاملين. قال لي بـــالحرف الواحـــد: المهندس مرسي في مصحة عقلية منذ اثنتي عشرة سنة. لديـــه اكتئاب نفسي لا يفارقه. سألت: وما سببه؟.. همس لي قـــائلا: يوم غادرته امرأته كانت تعمل معنا هنـــا وتفرغـــت لحياتـــها الزوجية ثم هجرته. ولما هجرته لم تعد إليه. اضطربت حياتـــه ونقل إلى المستشفى ولا يزال فيها حتى اليوم ويتقاضى أجـــره كاملا طبقا للقانون بشأن الأمراض المزمنة.

لم استوعب الموقف بالضبط. أمعقول أن يصـــاب إنســـان بالاكتئاب لمجرد أن امرأته تركته. لقد حطمت قلبه يا دليلة. لا أدري من قال لك إن كل الآباء مثل أبيك يسرقون أطفالهم مـــن زوجاتهم ويهربون منها. أبوك يا دليلة كان شاذا. وقد صنـــع منك أيضا امرأة شاذة.

لا تتصوري شكله وهيئته وقوامه يوم ذهبـــت إليـــه فـــي المستشفى. قلت للطبيب المختص أنني قريبة لـــه مـــن بعيـــد. ضايقنا اختفاءه وعرفنا انه يعالج في هذا المستشفى. إن راتبـــه الذي قرره القانون لا يزال يتقاضاه حتى تستقر حالته هو الذي ساعده في استمرار العلاج رغم لا شفاء منه. يبدو أنـــه ولـــد وحيدا وأن موت أمه شرخ روحه شرخين. وكبر الشرخ بوفـــاة أبيه. لكن زواجه رمم الشرخ في قلبه واصبح غـــير ظـــاهر. وهجر زوجته إياه فتت قلبه من الداخـــل حتـــى اصبـــح مـــن المستحيل أن يلملم من جديد.

دخلت عليه رأيت شبحا. لم أصدق أن هذا الرجل هو الـذي كلمتني عنه. غائر العينين. وحول عينيه سحابات سوداء. خداه ضامران. يبدو الأرق واضحا في احمرار عينيه. كأن عقلـــه ثبت على سؤال واحد لا يجد له جوابا:لم هجرتني؟!..

قلت له بجرأة: أيفعل المهندس المرموق ذلك في نفسه؟..

سألني باستغراب: من أنت؟..

- أنا واحدة من زميلاتك في العمل.

- وماذا تريدين؟..

- أريد أن اطمئن على حالك.

- وهل رأيت حالي؟..

- يصعب على الكافر.

- أمض.. أمض..

- يا رجل. أمن أجل امرأة تهون نفسك عليك هذا الهوان.

- امرأة.. أي امرأة؟

– دليلة شكري.. هل نسيتها؟.. وهل لو نسيتها يكون ذلك حالك؟..

– كيف عرفت؟..

– حكايتك معروفة. لكن لا أعتقد أن من أجل امرأة تهون النفس بهذه الدرجة.

أسهم طويلا. ووجدت أنني لو تقربت إليه على أن في قلبي حبا يخفق، وتعلق بي، وهجرته مثلك فسوف يتحطم في هذه الحالة، وقد ينتحر، لذلك قلت له: أنظر إلي. إنني أصبحت أكره الرجال. لا. بل لا أهتم بهم. لقد ظلموني وداسوا على كرامتي. لكني لم أفقد إيماني بالله. ولم أجعل إيماني بنفسي يتسرب. ماذا سيفعل لي رجل.. وماذا ستفعل لك امرأة؟..لو كنت مكانك لطلقتها. وانطلقت أعب من متع الحياة. فليس النساء متاع الدنيا. هناك متع أخرى غيرهن.

خرجت من عنده بعد حديث طويل استغرق ساعات. لم أعد اذكر منه شيئا كنت كشيخ معمم ينصح إنسانا. لا أعرف كيف أقنعته أن يلقي الماضي خلفه ويهتم بالمستقبل. لدرجة أنني سألت طبيبه في اليوم التالي. قال لي إنه نام نوما عميقا في اليوم الماضي، ولم يقبل من الممرضة أن تعطيه حبة مهدئة حتى يستغرق في النوم.

لما دخلت عليه مرة أخرى. رأيت وجهه الشاحب باسما. رأيت السحاب الأسود قد انقشع من حول عينيه. ترك أثرا

بسيطا حول الجفون. ورأيت لحيته التي كان لا يحلقها إلا قليلا قد أزيلت. وأن شاربه الكث قد تم تهذيبه.

سألني: من أين أتيت؟..

قلت مازحة: من السماء. أرسلني ربي لأنقذ إنساناً من الهلاك والحمد لله أنه وفقني.

قال وهو يدنو مني: لا تتركيني.

أشرت إليه قائلة:لا..سوف أتركك حالما تنتهي مهمتي، فلا تظن أنني مغرمة بك. أو أنني أهواك. ولا يجوز لك أن تتعلق بي فإذا اختفيت من حياتك تعود من جديد تهوى. تسقط على عنقك فتهشم.

ضحك وهو يقول: لا.. لا.. هذا لن يحدث.

قلت: أعتقد أن أول خطوة تخطوها أن تعود إلى بيتك.

– وهل لي بيت؟..

– ألا يوجد لك بيت في حي السكاكيني.

استغرب وهو يسألني: كيف عرفت؟.

– لقد تكفل المستشفي هنا بالمحافظة على شقتك بالسكاكيني. وقد طلب منها ذلك رئيس شئون العاملين بالشركة التي تعمـــل بها.

– أمعقول.. هذه المدة كلها ولا يزالـــون يحتفظـــون لـــي بشقتي؟..

– ماذا يضير صاحب العمارة ما دام يقبض الإيجار حتـــى من غيرك فلن يقبض غيره.

– عظيم.

– الخطوة الثانية أن تطلق تلك التي هجرتك. وكانت السبب في اكتئابك الذي لولا أن الطبيب حوله إلى جنون لما تمكنـــت من استمرارك في صرف مرتبك بالكامل حتى الآن.

– أنت تقولين حقائق لا أعرفها.

– وذلك حتى تعرف أن الناس بخير وأنهم لم يتركوك فـــي محنتك وحدك.

– والخطوة الثالثة؟..

– أن تعود إلى عملك.

– كم مضى على في هذا المكان؟..

– تقصد في هذا المستشفى. مضى عليك أثنتا عشرة سنة.

كان واقفا يكلمني. وسقط على سريره منزعجا: اثنتا عشـرة سنة. هذا عمر طويل.

– ضيعته بسبب تافه. هجر امرأة لا قلب لها.

كنت أريد أن يكرهك حتى لا يعود يتطلع إلى رؤياك مـــن جديد . ويصدر وثيقة الطلاق.

الغريب أنه زهق طويلا من الرقاد الدائم في سرير واحـــد، وهو المهندس النشط الذي لا يهدأ، لذلـــك قـــرر أن يتخطـــى وضعه القديم، وما صدق أن دخلت عليه حتى انتشل نفسه مـــن بحر الماضي الغريق الغليظ حتى يصل إلى شـــاطئ الأمـــان متعلقا بهذا الملاك وتعليماته.

لعله الآن لن يصدق أن هناك امرأة أخذت بيده. يتصور أنه صنع هذه المرأة من خياله. وأنه انتشل نفسه من البئر السحيقة في البحر الغريق. وأنه عاد إلى بيته بإرادة منه. وعاد يمـــارس عمله بعد فترة تدريب. كل ذلك بوحي من نفسه. وليس لـــهذه المرأة أي وجود. فكيف إذا تظهر فجأة وتختفي فجأة ؟!..

فرحت جدا وأنت تسلميني ورقة الطلاق الثانية، وبذلك لـــم أعد أتعرض لأي مساءلة، فلن يفكر الرجل الـــذي طلـــق لـــو عرف أنني كنت قد تزوجت عليه أن يبلـــغ رجـــال الشـــرطة بجريمة تعدد الأزواج. أتذكر أنك قلت لي إن مرسي دخل على المأذون واثقا من نفسه، وحرر وثيقة الطـــلاق مـــن نســـختين وأعطاك نسخة منها بعد أيام. وظن المأذون أنك المطلقة. ولـــم يطلب منك التوقيع بالعلم. ولذلك لم يســـتغرب فيمـــا بعـــد أن يسلمك مرسي نسخة. كان مرسي يريد أن يؤكد لك فعلا أنـــــه طلق فعلا تلك المرأة التي عذبته. وشكرك جدا حينمـــا قمـــت بإزالة التراب من بيته. وكان مقبرة للصراصير والفئران التـــي حبست فيه جبرا، ولم تجد قوت يومها فنفقت. وبعد أن أنـــهيت مهمتك معه اختفيت من حياته. ويبدو أنه لم يسقط مرة أخـــرى نهبا للاكتئاب لأنه لم يتعلق بك. ولم يرتبط. وأنت أفهمته منـــذ البداية أن لا يربط بينك وبين حياته وأنك تكرهين الرجال مثلما عليه أن يكره النساء.

اتفقنا ألا نعرفه بابنه جمال إلا بعد أن يوقـــع فـــهمي والـــد سوسن الوثيقة الأخيرة وأتحرر بعد ذلك من الرجال. وحتـــــى أحمي عفاف من والدها، قررت أن نعود جميعا إلـــــى مقـــري بالهرم. وكانت العائلة التي تسكنه قد تركته واصبـــح خاويـــا. وعـــارض الأولاد.. كـــل الأولاد. أولادي وأولاد أمينـــــة. وعارض الأولاد جهرا لأن كل مدارسهم قريبـــة مـــن قصـــر الزمالك. وعارض أولاد أمينة ســـرا وعضـــدوا أولادي بـــلا

علانية. لأنهم يعرفون أنني صاحبة الأمر والنهي في القصـــر. لكني رفضت كل الاعتراضات خاصة تلك التي تصــــدر مـــن عاطف. كان يعترض لأن المسافة سوف تتباعد بينــــه وبيـــن حبيبة القلب. وبدلا من أن يراها وهو يركب ســـيارته خـــلال دقائق، قد تستغرق منه المسافة ساعة بســـبب الزحـــام الـــذي يتراكم ولا ينقشع كسحاب الشتاء.

ظننت بالفعل أن البعد سوف يصيب القلوب بالجفاء، لكـــن أمينة أخبرتني أن عاطف أعلن عن شخصيته لفتاته. وعرفـت أنه ثري فعلا وأن عليها أن تنتظر تخرجه من الجامعة وعـودة أمواله من قبضة الوصي إلى قبضته ويتزوجها. وقـــد ســـألت البنت الكبيرة محسن ابن أمينة عما سيفعله. قال إنه ليس فـــي ثراء عاطف ولن يكون يوما في ثرائه. وأنها عرفتــــه فقـيرا وسيبقى فقيرا. إذا قبلته على هذا الوضـــــع فـــأهلا بـــها. وإذا رفضته فسوف ينسحب من حياتها لكن الفتاة لم ترض بغـــيره بديلا.

كنت قد انتقلت إلى قصر الهرم حتى لا يشاهد فارس ابنتـــه عفاف مرة أخرى، ولعل في نفسي شعور أنه قد يخطفها منـــي أو يحرضها على الانضمام إليه. وفي نفس الوقت لاحت لـــي فكرة أن لو أراد عاطف أن يتزوج فليزف إلى عروســـه فـــي قصر الزمالك. وهكذا لا يتسنى لي أن أراها صباحا ولا مســاء إلا في أوقات متباعدة، فلا أقرف من أنها مـــن طبقـــة دنيـــا، ويعذبني ذلك الشعور. ولا أحس بالتعالي عليها، فيضايقها ذلـك ويضايق عاطف أيضا. وليهنأ بها في قصر أبيه، ولا أهميـــــة للجزء الذي أملكه في هذا القصر، فأنا لم أعلن عنه وتنازلت له

سرا عنه، ولا يجوز لأولادي الآخرين أن يتطلعوا إلى ثـــروة أمهم التي تنازلت عنها.

المهم اختفيت عن نظر فارس حتى يتحقق الطلاق الثـــالث. لكن صادفتني في تلك الأثناء مشكلة تبحث عن حل، تمثلت في وجود ابنين لأمينة في سن عفاف ابنتي. أحب كل من طـــارق وأمين ولدا أمينة الأوسطين ابنتي عفاف. كان طارق في السنة الثانية في المدرسة الثانوية. وقد بلغ من العمر السابعة عشـرة. وقع في هوى عفاف دون أن تدري وكتم في نفسه هذا الـهوى. وأغرم بها أمين وهو في مثل سنها وكان في السنة الأولى فـــي المدرسة الثانوية. وكتم هو الآخر غرامه. أما عفاف فلم تنظـر إليهما إلا على أنها أخت لهما. وقد عرفت ذلك الخبر من أمينة حينما صرحت لي أن الولدين يتشاجران. وذلك من أجل خدمـة عفاف. إذا أرادت كتابا أسرع طارق بإحضاره لها. وإذا أرادت كوب ماء أسرع أمين بسكب الماء من الـدورق فـــي الكــوب ووضعه على صينية صغيرة ويقدمه لها. إذا طلبت شراء شيء من الخارج تنافسا الأخوان على شرائه وإذا لم يستسلم واحـــد لرغبة الآخر دق الشجار بينهما. ما السبب يا أمينة؟.. الســـبب هو القلب وما يريد. لا .. لا.. يا أمينة. البنت لا تزال صغـيرة وإلا عزلتهما عن مخالطتها. ثم يجب أن يعرفا.. ولم أكمـــل. عرفت أمينة أن وضعهما الاجتماعي لا يجوز أن يسمح لـــهما بالتفكير في حب عفاف. كأن هناك علاقة بين التفكير والحـب. كل ما يعرفه خلق الدنيا أن الحب يبدأ ثم يحدث التفكـــير فـــي الحب. ولم يقل أحد أن العكس صحيح. حـــاولت أن استشـف شغاف عفاف. وأن أدرك منها اتجاهات قلبها. غير أنها لم تكن على علم بشيء. ولم تفسر تنافس الأخوين على أنه تنافس على قلبها. وأوصيت أمينة ألا يجتمع الأخـــوان مـــع عفـــاف وأن

تجعلهما لا يخرجان من غرفتهما بـــالدار الملحقـــة بـــالقصر والمعدة لهم جميعا. وكنت اسمح لمحسن أن يدخل القصر هـــو وأخته الصغرى وفاء التي تلعب دائما مع سوسن، فهما فـــي سنين متقاربتين. لست أدرى من أين جاءتني تلك النزعة فـــي التفرقة بين طبقات المجتمع. لعلها نبتت بعد أن تزوجت فارس ثم مرسي وكلاهما كانا من الطبقة المتوسطة. وشعرت بالحيـــاة معهما بضيق في العيش لم أعهده بسبب مرتبهما المحدودين بل إن الأول لم يكن عمل بعد وكنت أصرف عليه. فكأني كنـــت أنفس عن هذا الضيق بفضل ما ورثت مـــن أمـــوال. قاســـيت معهما من نوع الطعام ونوع الملبس والمسكن. لكن مع فـــهمي آخر الأزواج المخدوعين لم أشعر بذلك فقد كان ثريا ينفق ببذخ بعكس الرجل الأول في حياتي. لقد بت أعتقد أن بخلـــه هـــو الذي قضى عليه وليس تقدمه في السن. لكن كيف كان بخلـــه هو السبب مع أنه عاش عمرا مديدا؟.. إنها أفكار تراود النفـس ولو أن الواقع يكذبها في بعض الأحيان.

فضيلة

كان من السهل أن أتعرف على فهمي من خلال أخيه خيري، فأنت أدرى بعلاقتي السابقة لي معه. ويمكن إذا أعدت علاقتي بخيري -وهو يتمنى في رأي- سوف أتعرف على أخيه.

تركت المحل في الصباح، واتجهت إلى شركة خيري. كنت اعرف مقرها ولكن لم أزره يوماً في الشركة. كانت العلاقة بيننا سرية حتى أن رأفت المخرج لم يعرف هذه العلاقة رغم أن خيري نزعني منه أو سرقني بالأحرى منه.

ما كدت أدخل من باب مدير مكتبه، حتى استقبلني بعاصفة هوجاء من الطرد: لم جئت؟..ماذا تريدين؟..عودي من حيث أتيت.

قلت له بصرامة: ما هذا؟.. هل أنت مجنون؟..

عند هذه اللحظة دخل رجل لا أعرفه. كنت أقول له: هل تعامل عملاءك بهذا السلوك السيئ ؟..

كان قد نهض وهو يقول كلماته العنيفة، وحينما وصلت عبارتي الأخيرة. ورأى رجلاً يدخل، امتص غضبه، وعاد إلى وقاره وضبط أعصابه، فهو يشاكسني في حارة، يبدو بريئاً أمام الناس في الشارع، وحاول أن يجلس، وأنا انفجر فيه

قائلة: لا أظن أن ذلك مستوى رئيس مجلس شركة محترمة أن يستقبل عملاءه بهذه الطريقة السيئة.

شدني الرجل برقة، وقال لي بهمس: تعال يا مدام.

– لا اعرف ماذا حدث له.

لم أعتقد أن خيري كان سيقابلني هذه المقابلـــــة الشرســـة. وشعرت أن خطتي في اللقاء مع فهمي خابت. فكيف ســـأدخل الشركة بعد الآن وألتقي بفهمي؟.. انقدت للرجل، وهو يدعوني إلى مكتبه، ليطمئن خاطري. وحينما جلست عند المكتب علـــى مقعد مريح، ذي إسفنج قوى متين ولكنه ليس مؤلمـــاً. رأيــت لافتة على المكتب تشير إلى اسم الرجل: فهمي عبد الرزاق.

تنهدت قليلاً. وعرفت أنني بلغت هدفي دون أن أدري.

لم ألاحظ عليه أنه اكتشف أن الماثلة أمامه، هي تلك الفتـــاة بنت الإسكافي الذي سكن يوماً بجوارها في إحــــدى حـــواري القاهرة. كما أنني لم اكتشف ذلك أيضاً. سمعته يســـأل: مـــاذا كنت تريدين من الأستاذ خيري؟..

– كنت أريد أن أعرف أنواع البضاعة التـــي تســتوردها الشركة وأسعارها وكذلك منتجات مصانعها. وذلك لأني أريـــد أن افتح محلاً كبيراً تباع فيه المعلبات الغذائية.

– لكن لماذا عاملك هذه المعاملة؟

– لأني كنت صديقته في يوم مـــن الأيـــام ولـــم أرض أن استمر في الصداقة إلى الأبد. كنت أريـــد أن أكـــون زوجـــة محترمة. لكن كان هو يريدني عشيقة فرفضت. وفـــي نفـــس الوقت كان يريد أن يتزوج من تلك المسماة دليلة شكري...

قاطعني بفضول: دليلة شكري.

– نعم. كان يريد أن يتزوجها. لقد قمت بمراقبتها وعرفـــت إنها مزواجة وكانت تدعي البراءة والعذرية. عرفـــت أن لـــها أولاداً من زيجات سابقة.. وكانت تدعي أنها لـــم تنجـــب. ولا أدري كيف كان يستمرئ علاقة غير شرعية معي، وفي نفـــس الوقت يريد الزواج من امرأة بهذا الصنف.

– إنها سوف تكون علاقة شرعية...

– نعم.. نعم.. ولما أثور وأرفض العلاقة غـــير الشـــرعية يستنكر مني ذلك. ثم جئت إليه فقط لأشتري بضـــائع وليـــس لأجدد علاقات ماتت.

– على العموم، اجعلي تعاونك معي، ولا تتصلي به.. أنـــا هنا مدير المخازن، وأستطيع أن أبيع لك من بضاعتنا.

– والله نفسي أصابها الصدود. لكن ما باليد حيلة. فقد دلنـــي الناس على أنكم من تجار الجملة المحترمين.

– شكراً.. شكراً..

حاولت أن أتأكد فأشرت إلى اللافتـــة وســـألت:هـــل أنـــت أخوه؟..

– نعم.. نعم.. أنا أخوه.

– شتان بينكما. أنت هادئ وهو شرس. أنت مؤدب وهو...

ونطقت الكلام وعيناي تدمعان، وأجففهما بمنديل ورقي.

– أرجوك. لا أريد دموعاً.

ثم سألني فجأة: أتعرفين دليلة شكري.

– لا.. لا أعرفها. هل تعرفها أنت؟..

طأطأ رأسه قليلاً وقال: كانت زوجتي.

سألت ببهجة: هل طلقتها؟..

قال بفزع: لا.. لا.. أقصد إنها زوجتي. لكنها هربت منـــي. قال لي أخي إنني يمكن أن أجدها في قصر ملكها بالهرم.

قاطعته قائلة: هذا هو القصر الذي رأيت فيه أولادها.

استطرد قائلاً: ذهبت فعلاً إلى القصر لكن للأسف اتضح لي أنه بيع عند إعسار أبيها واشترته امرأة تسكن فيه مع أولادها.

ولم أجده يربط بين بنت الإسكافي وهذه المرأة الغنية. ولعل السبب أنه لم يكن يراني كثيرا فلم تعلق صورتي في ذهنه. ولو أني كنت أعرف حكايته جيدا من أخيه خيري فتذكرته على الفور: ألم تطلقها؟..

– لا.. لا.. لم أفكر.

– أمعقول يا ربي. امرأة تهجرك وتبقيها على ذمتك. أنا لو كنت منك لطلقتها على الفور.

– سوف أبقيها هكذا كالبيت الموقوف.

– وماذا ستستفيد؟

– مجرد انتقام من امرأة.

– لا.. لا.. أنا لا أوافقك على ذلك.

– لن أفكر أبدا في طلاقها حتى أجدها.

– ألم تتزوج غيرها؟..

– نعم تزوجت. وزوجتي تعرف أنني كنت متزوجا.

– لكن هذا خطر. لقد تزوجت وأنت تعرف أنك لو لم تبلغ الزوجة الأولى تتعرض للعقوبة. أتعرف أنها لو عرفت لأبلغت

الشرطة عنك، فتحبس وهي يمكنها أن تطلب التطليق من القاضي ويستجاب لها.

قال: ياه.. لم اكن أعرف ذلك. قلت:هكذا تم تعديل القانون.

قال: لكنها هربت مني.. وأنا لا أعرف مكانها.

قلت: الموضوع شائك ويحتاج إلى محام حتى لا تتعرض للجزاء.

دليلة

كنت أبحث عن أمي كما تعرفين، لكن لم أجد وثيقة واحدة تقودني إليها، حتى اسمها المذكور في شهادة الميلاد، فقد يكون اسما وهميا، وقد حاولت البحث عنه في دفتر الهواتف، غير أني لم أجده، وعنوان ميلادي هو قصر الهرم، فكيف أبحث عنها فيه؟.. أكانت تعيش فيه وطردها أبي، أم كانا يعيشان في مكان آخر وتعمد أبي أن لا يذكره حتى لا أتعرف عليه حينما أنوي البحث عنها. غير أن ابنتي عفاف كان يواتيها الشوق لأبيها، مثلما كان الشوق يواتيني لأمي. ولعلها كانت تظن أنه مات مثلما مات أبو عاطف. ولما تجرأت وسألت أين أبي؟.. لم أجبها. ولم تكرر السؤال بعكس جمال وسوسن. لكن لما تجسد أمامها ذلك الوالد الغائب، وعرفتها به في بيتك. عرفت أنه على قيد الحياة، فكيف تتصل به كلما مزق الشوق أحشاءها إليه؟.. إنه محاسب معروف. كان يراجع حسابات الخالة فضيلة. إذا فهو رجل مهم. وكل رجل مهم له هاتف. أخذت تبحث عن اسم والدها الذي تعرفه تماما. حتى وجدته. نادرا ما يكون الاسم لعدة أشخاص. لابد أن يختلف لقب الأب أو لقب الجد أو لقب الجد الأكبر لو كان الاسم رباعيا. وفعلا وجدت الاسم مطابقا لاسمها في شهادة الميلاد. فلم يصل بي الفجر في يوم من الأيام أن أغير أسماء آباء أبنائي أو بناتي. ولعل والدي فعلها وكان يسكن في مكان غير قصره وإلا لجاءت أمي تبحث عني. وقد لا يكون فعلها ولكن المؤكد أن السكن كان مختلفا في زمن الزوجية عن زمن الانفصال. ولا تدري أمي مكان

قصره أو لعلها ظنته مخمورا يعيش عالة على النساء يمتـــص منهن أموالهن ويهرب.

يبدو أن عفاف اتصلت بأبيها، فجاء فارس ليقابلني في قصر الهرم. قابلته على مضض، وهو يسألني: لماذا انتقلــــت مـــن قصر الزمالك إلى قصر الهرم؟..

– أنا حرة.. انتقل متى أريد وكيف ما أشاء.

– لكنك كنت تسكنين شقة في ذلك البرج المطل على النيــل يوم تزوجنا؟..

– كان ذلك عش الزوجية.. وتركته. لقد تزوجتني ثريـــة. كانت لدي سيارة. وكانت الشقة باسمي. وكنت تعرف أن معـي مالا لم أخف عنك شيئا.

– لكن أخفيت عني أنك حامل مني.. ولك بنت اسمها عفاف فارس.

– كانت هناك ظروف مرضية اضطرتني أن اختفـــي مـــن حياتك. ولما بحثت عنك بعد شفائي كنت فـــي الســـجن. ولـــم أعرف متى خرجت ولم أعرف أين تعمل. ولا أين تقيم.

– ولما قلت لك إنني أريد أن أرى ابنتي.. تركـــت قصـــر الزمالك وجئت هنا إلى قصر الهرم.

كدت أقول له إنني كنت أعاني من عقدة نفسية هي الحنــــو الزائد على أولادي ولا أطيق أن يخطفهم مني آبـــاؤهم هكــذا كنت أتصور. غير أني قلت: قصر الزمالك ملك لأبني عاطف، وهو يريد أن يتزوج فيه فتركته لذلك السبب. بالصدفة حصلـت مطالبته حينما طالبت أنت برؤية عفاف.

– ولم لم تتصلي بي في العمل وتعلميني بهذا الانتقال حتـى أجد المكان الذي ألتقي به بابنتي أو آخذها منه؟..

– لا أعرف مكان عملك ولا مكان إقامتك.

– سلي صديقتك فضيلة.

– فضيلة.. لقد خاصمتها يوم التقيت بك عندها.

– لا.. يا هانم. أنت تكذبين. حياتك كلها كذب.

– أرجوك.. تذكر أنك في بيتي.

هز رأسه بامتعاض وهو يقول: المهم أنني أريـــد ابنتـي. لتعيش معي في بيتي. شقة محترمة مؤثثة. بها كل ما يخطـــر على البال.

– والله إذا وافقت البنت على ذلك فلتذهب معك.

ناديت على عفاف أن تأتي، وكأنها كانت تعرف أن أباهـــا موجود بالقصر. فهرعت على الفور وهو يقول: مثلما بقيـــت

معك ست عشرة سنة فلا بأس أن تقضي معي سنوات حتى تتزوج وتمضي إلى بيت زوجها.

دخلت عفاف بسرعة. وتوقفت حينما رأت أباها. ثم نهض الأب وهو يقول: أهلا عفاف. وفتح ذراعيه ليضمها إليه ويقبلها في وجنتيها بحرارة وتقبله في وجنتيه بتيه.. ما هذا الغرام المفاجئ ؟.. ألم تكوني ستفعلين ذلك لو التقيت بأمك؟.. وأين هي أمي؟.. عفاف عرفت أباها. أما أنا فلا أعرف شيئا.

قال الأب بوضوح: تعرفين يا ابنتي أن لأمك حضانتك حتى سن الحادية عشرة. وقد يمتد ذلك إلى الثالثة عشرة. لكن بعد ذلك يحق لي الولاية عليك وضمك إلي. فهل تقبلين؟..

سكتت البنت ولم تتكلم لعلها كانت تخشى عصبية أمها وانفجاراتها المباغتة. قال الأب: افهم أن السكوت علامة الرضا.

وقفت معترضة. وقلت: هذا ليس زواجا يا أستاذ. السكوت خجل وعدم دراية بما يصلح وبما لا يصلح لها.

فجأة قالت عفاف: أنا لا مانع عندي.

سقطت على المقعد. وأنا مذهولة. ابنتي التي ربيتها وأطعمتها وكسوتها وأدخلتها المدارس الأجنبية الفرنسية. وجعلت منها عروسا. تقول الآن: لا مانع. عندي.

انتفضت وقلت لها صارخة: اذهبي. لملمي ثيابك وكتبـــك. وأمض معه. إنها الآن في مدارس فرنسية. أرجو أن تجد المال الذي تدفعه مصاريف لها.

قال متحديا: عندي.. عندي بإذن الله ذلك المال.

لما خرجت عفاف. كانت الدموع تتجمع في عينـــي. فجـــأة انهمرت غزيرة وفارس يقفل باب القصر. ومن بعيد تركتنـــي أمينة أبكي دون أن تحاول أن تخفف عني. وكانت هي الأخرى تبكي. لم تفكر في يوم أن عفاف ستوافق فيه على ترك البيـت. بل لم تفكر أن خروجها سيكون هكذا بسهولة. كان من الممكـن أن أعود لفارس من جديد ومعي ابنتي. بل كان من الممكـن أن يقيم فارس معي لكن ذلك العقد المشئوم الذي عقدته مع فـــهمي عبد الرزاق يمكن أن ينكشف، وأقع في جريمة تعـــدد الأزواج من جديد. لم يكن هناك غير فهمي لم يتخذ قرارا بعد بالطلاق. وأنت تسأليه كل يوم هل استشار محاميا. فيكلمك فـــي محلـــك متى تطلبين أصناف المعلبات من شركته. كـــان فـــهمي هـــو الشوكة الباقية في سلسلة الجرائم التي ارتكبتها.

لم أستطع أن أصرح لأمينة بذلك وهى تدنو مني وتقـــول: كان الأجدر بك أن تعودي إليه.

وانتفضت صارخة: لا أستطيع.. لا أستطيع..

رن جرس الهاتف وأنت تقولين لي: مبروك.. مبروك.

– على ماذا يا ست فضيلة. على خيبتي.

– لقد طلقك فهمي هذا اليوم.. ومعي الوثيقة. استخرجتها من فم الحنش بالقوة.

– يا للخيبة.

– ماذا حدث؟..

– لقد أخذ فارس عفاف ابنتي لتعيش معه. ولم تعارض الفتاة. ذهبت طواعية.

أخذت أفتش عن السبب. كيف تفارقني بهذه السهولة. ماذا فعلت بها؟.. هل طبعي العصبي هو السبب؟.. أم هل اشتياقها إلى أبيها هو الباعث. إنني لو كنت وجدت أمي أو عرفت أين هي لتركت أبي ورحلت إليها ولو سافرت بلادا بعيدة. هي كذلك وجدت أباها، وكانت تطمع أن تراه فلما سنحت الفرصة تركت أمها لعلها تستمتع بأبيها بعض الوقت.

فضيــــلة

يبدو أن الإنسان يخترع الفكرة، ويصدقها، ويســـعى إليـــها ليحققها. اخترعت فكرة أنني سوف أنشئ متجرا كبـــيرا فـــي مدينة ٦ أكتوبر، وسأزوده بالمعلبات المصنعـــة لتبـــاع فيـــه، وصدقت الفكرة، وأخذت سيارتي يوما إلى مدينـــة ٦ أكتوبـــر أشاهد أين سأقيم المتجر. دلني البعض على الحي السكني بعيدا عن الأحياء المكتظة بالفلل. وبدأت أخوضه بسيارتي اســـتطلع المتاجر الخالية. لم تكن بالاتساع الذي رأيته فـــي بـــاريس أو روما أو بيروت، لكنها من الممكن أن تكون نواة إذا ضُمـــت بعضها إلى البعض. وشعرت أن هواء إحـــدى العجـــلات قـــد ضعف قليلاً، فبدأت أبحث عن ورشة فـــي الطريـــق. وفعـــلاً وجدتها.. وقفت وطلبت من الصبي الصغير فـــي الورشـــة أن يملأ العجلة بالهواء.

لا تتصوري كم هي الصدفة رائعة!.. إن لها وقع الســـحر في حياة الإنسان، وكأن أو هو المؤكد أن هناك قوة عليا -هي قوة ربنا سبحانه وتعالى- تنظم الكون بدقة وبراعة فـــائقتين. وتجمع الشتيتين وتفرق المتآخيين. رأيت رجلاً يبدو كصـــاحب الورشة يخرج من داخلها وينادي الصبي أن يعطيـــه مفتاحـــاً معيناً. ولما وجده مشغولاً بعجلتي. كاد يستدير ويعود. لولا أن فتحت باب سيارتي سمعت صوته ولم تخطـــيء أذنـــي. لـــم تخطيء يا دليلة. نبرات صوته الصعيدي. ورغم التجاعيد التي ملأت وجهه لكن شاربه المميز لا زال لاصقاً بالوجه. وعينـــا الصقر لا تزالان تلمعان. صرخت: أخي.. صرخ: فضيلة. لـــم

يكن هناك وقار. ولم يكن هناك رقيب يقــص المشــهد. لقـد ارتميت في حضنه وارتمى في حضنـــي. كـم افتقـدت جـو الأسرة. وكم افتقدت والديّ. قبلته في وجهه الملـــيء بالشـحم رغم أن القبل كانت نادرة فيما بيننا من قبل. شـــعرت بملـح العرق في شفتي. ولعله قبلني أيضاً فلصق بشـــفتيه الأحمـر والبدرة ورائحة العطر الفرنسي. لم نصدق أنفســنا. وخرجـا عمال الورشة يشاهدون منظر الصعيدي وهو يحتضن بل يلتهم المرأة القادمة من القاهرة بل من باريز. فالتفت إليــهم وقــال: هذه أختي. وعادوا إلى أعمالهم وهم لا يصدقون أن هذا الجلف له تلك الأخت الجميلة.

–متى عدت؟..

– عدت منذ سنوات.. ولم أجدكم.. وأين أبي وأمي؟..

– أبوك أصيب بالروماتيزم أقعده عن الحركة. صار مـــن العسير أن يذهب لصرف المبلغ الذي خصصته له. وكنـــا قــد انتقلنا إلى ٦ أكتوبر في بداية نشأتها. وافتتحت هذه الورشــــة. وحمدنا الله على ذلك.

– كان من الواجب أن يُخطر المصرف بعنوانكم الجديـــد. جئت من الخارج وذهبت إلى العنوان القديم والأقدم فلم أجدكم.

وتأملني وأدارني بيده القوية وهو يسألني:ما هذه الحلاوة؟..

– المال.. المال يصنع المعجزات.

- وهل تزوجت؟..

- لا.. ما زلت عانساً.

- أنا تزوجت.. ونعيش في شقة هنا في ٦ أكتوبر. قالوا إن هواءها عليل يرد الروح. ولكن أباك أقعده المرض.

- وهل بيتك قريب من هنا؟..

- نعم.. نعم..

- إذاً خذني لوالديّ... خذني إليهما..

- تقصدين إليهم.. هناك أبـــي وأمـــي وزوجـــي وأولادي الثلاثة. كلهم ذكور والحمد لله.

لا تتصوري كيف كان اللقاء. تحامل العجوز الإسكافي الذي ملأه الرصيف ببرودة دائمة وتيبس في العظام وطحن صحتـه. ونهض يأخذني في حضنه. لأول مرة يتخلى الصعيدي الجلـف عن صرامته ويقبل هذه الفتاة العانس. وأمي ذابت في أحضاني فقد افتقدت الوحيدة التي كانت تتكلم معـــــها. وزوجـــة أخـــي مبهورة بجمالي رغم أنني أدخل بقدمي من أعتاب الأربعيـــن. وأولاد أخي ينتظرون قبلات عمتهم الثرية التي فُقد الاتصـــــال بها منذ زمن بعيد. سنون العمر أصبحت لا تعد كأنها غابة قد حُشرت فيها الأشجار حشراً..كل شجرة بســـــنة أو بشـــهر أو بيوم.

كادت الشمس تغرب. وأمي تسألني:ألم تتزوجي بعـــد يـــا فضيلة؟

قلت: يا أمي.. كان يجب على المرء أن يسعى إمــــا إلـــى الزواج وإما إلى المال. واخترت المال. وها هو العمر يغـوب دون زواج. لا أهمية للأمر. لم أشعر بغصة حتى الآن.

قال الأب: لو كنت تزوجت ذلك الكاتب الذي تقـــدم لـــك.. نسيت اسمه، لكنت الآن لديك عدد كبير من الأولاد.

قلت في سري: (آه لو تعرفوا أنني عقيم)، ولم انبس ببنـــت شفة.استأذنت وأنا أقول: سوف ابني فيللا هنا في ٦ أكتوبـــر. وسوف أضمكم إليّ. فليأخذ أخي الدور العلوي. وآخذ الــــدور السفلي. أنا وأنتما.

ثم نظرت إلى أبي وأنا أقول للرجل المقعد: ســـوف أمــر عليك غداً يا أبي لنذهب إلى طبيب معالج.

قال زاهقاً: حاولنا يا ابنتي.. لكن المفاصل انبرت. واصبـح من الصعب أن أمشي.

- لا تهتم. لقد خلق الله الداء ومعه الدواء.

وفعلاً أخذت أبي إلى طبيب اختصاصي فـــي الرومــــاتيزم. وكشف على الرجل العجوز. وقال إن حالته متأخرة. وعاد وقد ركب بجانبي السيارة محمولاً بساعدي أخي المفتولين. ولعلهما كانا يتساءلان عن أسباب ذلك العز الذي أعيش فيه. وهل يكفي

أن يلبث الإنسان في الخارج مدة ثم يعود بهذا الثراء. ووقفت عند محل لبيع الأدوات التعويضية. واشتريت كرسيا متحركا لأبي. يمكن أن يحركه بالضغط على زر كهربائي فيه. وفوجئ الرجل وهو يسألني عن قيمة هذا الكرسي. انزعج. ولكن لما كان الثمن قد دفع فكان انزعاجه لضخامة المبلغ وليس لأن المطلوب منه أن يدفع.

دليـــلة

أتعرفين لقد كان فهمي عبد الرزاق ذكيا للغاية، فقد طلقنـــي فعلا لكن أثبت في وثيقة الطلاق أنني أقيم في قصري بشـــارع الأهرام. وطلب من الشرطة أن توافيني بوثيقة الطلاق علــــى هذا العنوان. وفعلا تتبع المحضر حتى إذا ما دخـــل القصـــر، وبالصدفة فتحت الباب لانشـــغال أمينـــة بـــالمطبخ، ســـلمني المحضر وثيقة الطلاق. لم أستطع أن أنكر شــــخصيتي أمـــام المحضر، فقد اجتاحتني موجة من السعادة لا يمكـــن وصفـــها حينما عرفت أن وثيقة طلاقي من فهمي هي التـــي فـــي يـــد المحضر. هذه الوثيقة هي آخر سلسلة من السلاسل التي كـــانت تقيدني بجريمة تعدد الأزواج.

جاء فهمي -في نفس اليوم- بعد تسليم المحضر الوثيقة. واز الجرس. وفتحت له سوسن الصغيرة الباب وسألت: من تريد؟

سألها فهمي بخبث: ما اسمك يا شاطرة ؟

قالت سوسن بسذاجة: سوسن.

- واسم أبيك؟..

- اسمه فهمي عبد الرزاق.

اضطرب فهمي عند سماع اسمه. لم يكن يظن أن له ابنة مني. وأن البنت كبيرة في السن. تبدو كأنها بلغت السابعة من العمر وتدنو من الثامنة. لكنه استجمع كل قواه التي انهارت فجأة. وسأل: ماما دليلة هنا؟

تركته سوسن وأسرعت وهي تنادي: ماما دليلة.. ماما دليلة. رجل يريدك.

جئت على صوتها الصارخ لأجد نفسي وجها لوجه أمام فهمي عبد الرزاق. وصاح فهمي قائلا: أنكرت السيدة المحترمة، لا أعرف ما علاقتك بها أنك صاحبة القصر. وأن والدك باعه عند شهر إعساره. وها أنت في القصر. ولك مني طفلة اسمها سوسن.

بهت وقد تجمعت لديه هذه المعلومات بالصدفة المحض. سألته بعجرفة: ماذا تريد؟..

– أريد الحقيقة. لا الأكاذيب التي لفقتها في حياتنا الزوجية.

– أنا لم ألفق أي أكاذيب. أنت الذي تمثل أدوارا تعيشها وهي لم تحدث.

– أي أدوار؟.. ماذا تظنين في.. مجنون؟..

– لا عاقل.. وألف عاقل. ألم تطلقني؟..

– نعم طلقتك حتى انتهي من مشكلة قانونية نبـهتني إليـها امرأة.

– وما هذه المشكلة؟

– لا داعي لأن تعرفيها.

– إذا مع السلامة.

– وابنتي؟..

– ها هي أمامك. يمكنك أن تأتي كل أسبوع لتراها. وحينما تبلغ السن القانونية خذها إلى الأبد.

كانت سوسن تتأمل فاصل الشجار الطويل بيننا. لم تـدرك الطفلة أنها أمام أبيها. لم تعرف فيما نحـن نتشـاجر ومـادة التشاجر. وانحنى فهمي وهو يدنو منها وهو يقول: سوسـن.. سوسن.

أصغت إليه. وهو يقول: أنا بابا يا سوسن.
نظرت إلى أمها. نظرت إلى تسألني بعينيها أن أدلها علـى الحقيقة. قلت لها: نعم هذا بابا. وقلت بعصبية: ألم تسأليني مثل أخوتك أين بابا؟.. ها هو بابا أمامك.

وفتح فهمي يديه فتسللت فيهما برقة، وكان راكعـا علـى ركبتيه يستقبلها بحنان. وذابا معا. هل كان في إمكان فهمي أن

يعيدني إلى عصمته؟.. لا أعرف. ولكن هل كان من الممكـــن أن يتعرض للجزاء لأنه لم يبلغني بزواجه؟. لم يتسن لـــــي أن ألتقي بمحام ليدلني على ما يحدث في مثل حـــالتي. كـــل مـــا أدركته أن فهمي لم يفكر أن يعيدني إلـــى عصمتـــه رغـــم أن طلاقنا كان رجعيا.. وفي خلال ثلاثة شهور يمكـــن أن أعـــود إلى بيت الزوجية بإرادته المنفردة.. ولعله خشي من انتقـــامي بتعريضه لعقوبة عدم إبلاغ الزوجة بالزواج الثاني خاصة أنـــه يعرف عنواني ويعرف أين أقيم وسلمني ورقة الطلاق علـــــى ذلك العنوان ، فلن يجرؤ أن يبرر أمام المحكمة أنه لـــم يكـــن يعرف لي عنوانا. ويبدو أن زواجه الثاني منعه من أن يعيدنـــي إلى عصمته خاصة أن لديه أولادا آخرين.

وماذا يمكن أن يقول فهمي لزوجه عن ابنته سوسن. هـــــل يمكنه أن يقول إن لي ابنة من امرأة أخرى؟.. يبدو أنه جبـــن. بعد أن كنت معرضة للإدانة في تهمة تعدد الأزواج. أصبحـــت حرة. وبعد أن كان معرضا للإدانة بتهمة عدم إبلاغ الزوجـــــة بالزواج الثاني، اصبح حرا. فمن يجرؤ بعد أن نال حريتـــه أن يعود من جديد يرصف يديه بأغلال العبودية؟..

انصرف فهمي على أمل أن تراه سوسن من أســـبوع إلـــى آخر.

أتتصورين أن سوسن أبدت فرحتها بعد أن وجدت لها أبـــا. وأذاعت الخبر بين أهل القصر. وكانت ترقص من الســـــعادة. ولم تكف عن ذلك إلا بعد أن صرخت فيها بأن تحترم نفســـها. عصبية أنا مع أولادي ومع النـــاس أيضـــا. ولا أســـتطيع أن

أضبط أعصابي أبدا. ولو أن قلبي يرق بســـرعة وأحـــاول أن أصالح من أغضبته بعد ذلك.

الأمر الذي لم أتوقعه أن يأتي جمال ليسألني:أين أبي إذا ؟..

فضيلة

اتجهت إلى مجلس مدينة ٦ أكتوبر لأشتري قطعة أرض، وأقوم ببنائها. لم تكن الأحياء كلها جاهزة بالمرافق. اخترت الحي الخامس لدخول المرافق فيه، ولم يكن الحي الأول قد دخلته المرافق بعد. ولما عرفت أن التسليم لن يكون فورياً. طلبت أن أتسلم قطعة أرض من خمسمائة متر مربع في الحي المتميز. ولكن لم يكن التسليم فورياً كما تصورت. وانتظرت طويلاً حتى تسلمت الأرض. وكنت أزور أبي وأمي وأخي وعائلته في كل أسبوع. ويبدو أن الزمن حرر عقليتهم فتركوني أعيش وحدي. أو أن ضيق الشقة التي يسكنون فيها جعلهم لا يلحون في مسألة إقامتي معهم. كنت أترك الدقي كل أسبوع وآخذ معي كباباً أو دجاجاً مشوياً أو سمكاً مشوياً وآخو نيء لتقليه زوجة أخي.. ونأكل جميعاً. لا تتصوري جو الأسرة كان يحولني من امرأة غارقة في الحزن الخفي إلى سيدة تسبح في بحر من السعادة. كيف ضربت بالأسرة عرض الحائط وتركت مشاعري تجنح نحو الوحدة والرغبة في الحصول على المال. وتركت الحنان والعواطف الدافئة، لكن أعود وأقول كان الفقر هو الحائل الوحيد بين أن انتمي إلى أسرة أو لا انتمي.

تحسنت صحة أبي تماماً. وصار يجلس في شرفة منزل أخي يتأمل الفضاء الفسيح أمامه. صحراء تنبت فيها مساكن قصيرة القامة لكنها تعج بالسعادة. يكفي الإنسان أن تكون له مأوى حتى يكون سعيداً. يأتي بعد ذلك الأكل والشرب

والملبس. المأوى في مقدمة كل شيء. لكن أعود وأقول من أين يأتي المأوى إذا كان الإنسان لا يعرق ولا يتقاضى مقابل عرقه أجراً يسعده؟.. أصبحت فيلسوفة يا دليلة وأنا لا أقرأ إلا الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ولا أكتب.. حياتي مجرد عمل خالية من الرجال.

وجاء مرة أخرى الدكتور فوزي إلى شقتي.. هذه المرة. هو يعرفها جيداً لأنها من عرق يديه. اشتراها لي باسمي. لما فتحت له الخادم استأذنت أن تعلمني. سمحت له أن يدخل. ليس من الممكن أن اطرد رجلاً من شقته. قد يكون العقد مكتوباً باسمي لكني لا أنكر أبداً أن المال مال الطبيب.

سألته بجفاء: ماذا تريد يا دكتور؟..

قال بخجل :أنا أريدك في الحلال.

-وتعلن ذلك على الناس كافة ؟..

- وهل هناك حلال في الخفاء وحلال في العلن ؟..

- نعم.. رأيته في فيلم من الأفلام.

ثم سألت: وزوجك نجمة الإغراء ؟..

- إنها أصبحت امرأة مريضة بالقلب.

- ولم لا تعالجها. ألست طبيباً ؟..

– أنا طبيب أمراض نساء.

– أرسلها إلى طبيب أمراض القلب.

– إنها تعالج يا فضيلة.

– على العموم اطلبني من أبي الذي كان إسكافيا. ويعيـــش مع أخي الميكانيكي.

ظننت أنه سوف يضطرب عند ســماع كلمـــة إســكافي أو ميكانيكي. غير أنه قال:أعطني عنوانه..وسوف أذهـــب إلـــى مقابلته.

– سوف تقول له إنك متزوج وتطلب الاقتران بابنته ؟

– ما رأيك أنت ؟..

– لا تقل له.. وهل ستقول لزوجتك نجمة الإغراء.

– إغراء.. ذلك كان في الماضي. إنها ربة بيت الآن. لـــم تمثل منذ سنوات.

– لكن عليك أن تقوم بإبلاغها..

– هل ذلك ضروري ؟..

– ألا تعيش في الدنيا يا دكتور. إن ذلك هو القانون يجب على المأذون أن يبلغها بالزواج الجديد حتى إذا أرادت أن تطلب التطليق ترفع دعوى خلال سنة وتطلب الطلاق وسوف يحكم لها القاضي. قال: لم اكن أعرف.

قلت كأنما أعرف قوانين البلاد: الجهل بالقانون ليس بعذر.

سمعت تلك العبارة وحفظتها. كان قد رددها فارس يوما بمناسبة لا أذكرها. وانطبعت في ذهني. يبدو أن لا أهمية أن يكون الإنسان أميا. فكم من الأميين من يحفظ القوانين عن ظهر قلب. وكم من الأميين من يستطيع أن يتذكر الشعر أو النثر لو تمت قرأته عليه مرة أو مرتين. أنا شخصيا كنت احفظ الأغاني عن ظهر قلب وأرددها بدقة بل أرددها طبقا لسلمها الموسيقي. بل كنت احفظ الأفلام وما يقال فيها من عبارات بليغة وأرددها بيني وبين نفسي. وأقرأ الصحف وأعرف ما فيها ولكن لم أكن أستريح إلى قراءة الكتب، لذلك لم أكن أقتنيها.

ويبدو أن رأفت المخرج لم يفكر أن يدخلني عالم التمثيل حتى لا اشتهر ويفقدني، بسبب قدراتي على الحفظ والتميز.

واتفقنا على أن يذهب إلى والدي يوم الجمعة القادم في شقة ابنه بمدينة ٦ أكتوبر. وهناك سوف أكون موجودة. ويطلبني منه في حضوري. كنت أعرف أنه لن يجرؤ أن يذهب. ليس من السهل أن يتحرر من أغلال نجمة الإغراء. وأن يخطرها أنه سوف يتزوج غيرها. وأن يقلب حياته رأسا على عقب. وما توقعته كان. إذ أن الطبيب النابغة لم يحضر.

دليـــــلة

دون أدني شعور بتصرفاتي، أخذت جمال من يديه، وقلـــت له تعال معي.. سوف أعرفك بأبيك. ركب سيارتي إلى حـــي السكاكيني وأنا أقودها.. وعند العمارة وقفت بسيارتي.. تلـــك التي كنت فيما مضي أخفيها في شـــارع بعيـد عـــن شـــارع العمارة. وأقودها يوم الأربعاء على زعم أنني مغـــادرة إلـــى أسرتي في الصعيد دون أن يدري مرسي أني أملك سيارة..

فتح مرسي الباب، وفوجئ أن أمامه دليلـــة التـــي هجرتـــه بلحمها وشحمها، ومعها صبي لا يعرفه.

سأل مرسي: من ؟.. دليلة ؟..

وقف متصدرا الباب كأنه لا يريد أن يدخلني. سألته: هـــل تسمح أن نتكلم بالداخل؟..

قال وهو يفسح لي الطريق: تفضلي.. تفضلي..

كان متسامحا كعادته. ودخلنا. ونكش شعر جمال الناعم مثل شعري وشعره. وقال: ابن من ذلك الصبي ؟..

التفت إليه وأنا أجلس على نفس المقعد الذي كنـــت أجلـــس عليه فيما مضى من زمن. قلت له: هذا ابنك جمال.

وكان لا يزال واقفا، ومرسى لا يزال هو الآخـــر واقفــا. التفت إليه مرسي، وضمه إليه بعذوبة، ولم يبادر بــالاعتراض. كدت أبكي من فرط الحنان الأبوي الذي أشاهده ولـــم يصـــدر يوما من أبي. إن مرسي رقيق المشاعر ولعل السبب في ذلـك أنه نشأ وحيدا. ماتت أمه وهو صغير. ومات أبـــوه.. وتركـــه وحيدا. بكى مرسي كثيرا في حضن ابنه. وسألني: لم حرمتني منه كل هذه المدة ؟..

قلت على الفور: كنت مريضة.

قال: مريضة ؟.. اثنتا عشرة سنة.

– نعم.. كنت أعاني من عقدة نفسية.

جلس وابنه على ركبتيه. وسأل: عقدة نفسية.

رأيت أن أصارحه لعل صراحتي تشفع: أنـــا بنـــت رجـــل ثري، اختطفني من أمي، ولا أعرف مكانها حتى الآن، وهـــي لا تعرف مكاني أيضا. وكنت أخشى أن يرتكب معي أزواجـــي ذلك.. لذلك كنت أبادر بالهرب منهم بمجرد أن أشعر بـــالحمل. والآن شفيت.. عرفت أن أبي كان رجلا شاذا وأن ليـــس كـــل الرجال مثل أبي.. ولما طلب مني جمال أن يرى أباه.. وجدت أن أعرفك به.

قال وهو يتأمل ملامح الولد: غريبة!!..

كان الولد صورة منه. والإنسان يعرف صورته بدقة. لـــــم يشك أبدا في أبوته له. سألني: وما العمل ؟..

فضيـــلة

ربما وجد الدكتور فوزي نفسه مضطربا إزاء واجب الزوج وواجب الحب. يبدو أن نجمة الإغراء تفاقمت حالتها. واضطر أن يأخذها إلى طبيب للقلب.. ويبدو أن طبيب القلب قـــرر أن تسافر إلى أمريكا للعلاج. وقرأت في الجرائد وكنـــت أقرأهـــا حتى أزداد ثقافة، وأقتل الفراغ الكبير الذي يجتاحني. فلا إدارة محلي ملأت الفراغ، ولا مشاهدة المسلسلات والأفلام وبرامـــج التلفاز كانت قادرة على محوه. قرأت أنه ســـافر مـــع نجمـــة الإغراء إلى أمريكا حتى تعالج من أمراض القلب. غفرت لـــه تخلفه عن وعده. وكنت أمني النفس بحياة مع الرجـــل الـــذي أعتز به. لكن لا بأس أن يلبي نداء الواجب، فـــهناك عشـــرة طويلة بينه وبين نجمة الإغراء، لا يجوز لأحد أن ينكرها. ولا يجوز أن يطعن في الوفاء بواجباتها.

دخل رأفت المخرج السينمائي في محلي. وبالصدفة كنـــت أتفقد نظام ترتيب الملابس بالدور الأول. وكانت معـــه نجمـــة جديدة يريد أن يشتري لها ملابس مستوردة تليق بدور لها فـــي مسلسل. ويبدو أنه كان زبونا للمحل دون أن أعـــرف، يـــأتي ويشتري ويمضي ولا أراه.

صرخ قائلا: فضيلة. ومد يده يصافحني وهو يقول للنجمـــة الجديدة: هذه فضيلة هانم.. حبي الأول والأخير.

نظرت عاملات المحل إلى الرجل باستغراب. استغربن ما يقول وسط زبائن المحل.

أهكذا يعترف على الملأ بحبه. من يكون ذلك الرجل ؟.. يمكن أن يكون الممثل مشهورا لأن الناس تعرف رسمه واسمه. أما المخرج فلا شهرة له إلا بين أهل الفن. بل إن أعماله يمكن أن تكون أكثر منه شهرة ولا يتبين الناس ملامحه ولا يعرفونها.

قلت له، وأنا اسحب يده من يدي: هذا ليس المكان الذي تعلن فيه حبك يا أستاذ رأفت.

قال: أنا أريد أن أراك.. وأعرف أسباب هجرك لي.

همست بصدق: كف عن ذلك.. هل جننت ؟..

قال يهمس لي: أنا حتى الآن لا أعرف كيف اختفيت من حياتي. وماذا فعلت لك حتى تختفي من حياتي ؟..

قلت له، وأنا أهرب منه إلى الدور العلوي:فيما بعد.. فيمابعد ..

وصعدت وهو يسأل عاملة: من تكون ؟..

أجابت العاملة: إنها صاحبة المحل.

قال: يا لي من أخرق!!..

ولما انتهت النجمة الجديدة من شراء الملابس للدور المعهود إليها. قال لها: خذي سيارة أجرة وعودي إلى بيتك..

صعد إلى الدور العلوي من المحل. ورآني أجلس مضطربة على مكتبي. وقال بصوت خافت: أنا آسف.. لم أتمالك نفسي من الفرح برؤياك.

سألته بجفاء: ماذا تريد ؟..

– أريد أن أراك ثانية.. ومدي الحياة.

– قلت بلا مبالاة: وأنا لا أريد أن أراك.. مدى الحياة.

– لم .. لم يا حياتي ؟..

– أرجوك.. رأفت.. أحفظ لسانك.

نظر حواليه وقال: إن أحدا ليس معنا..

قلت: المهم.. احترم نفسك..

سأل: ما رأيك ؟

– فيم ؟..

– في أن نلتقي ثانية.

- قلت لك إنني لا أريد أن أراك.

جلس كأنما لا ينوي أن يذهب. وراح يقول: تعذبت كثـيراً لبعادك عني. لم اعرف سبب هجرك لي. كنا سـعيدين.. فلـم تباعدت؟

- أنا لا أحب حياة الحرام.

- ولم لم تقولي.. وكنت قد عقدت عليـك علـى سـنة الله ورسوله. لو كنت صارحتني لما ترددت.

- على العموم أعلم أنني امرأة عقيم لا انجب أطفالاً..

- أنا لا أريد أطفالاً.. أنا أريدك أنت.. لقد عرفت غلاوتـك يوم أن تركتني.. وأنت تزدادين غلواً عندي.. أنت جوهرتـي.. أنت نور حياتي.

- اسمع.. أنا لا احب البكش. إذا كنت تريد أن تـتزوجني فأذهب وقابل أبي الإسكافي وأخي الميكانيكي واطلبني منـهما. فإذا وافق فأنا لا مانع عندي. وإذا لم يوافقا فعوضك على الله.

- وأين يسكنان ؟..

- أعطيك العنوان.. وسوف أكون يـوم الجمعـة القـادم عندهما.. وكتبت العنوان على ورقة وأعطيتها له.

كان رأفت يدنو من السابعة والأربعيـــن. يكـــبرني بســـبع سنوات. وقد أصلع شعره. وخف حاجبيه الكثيفيـــن. وامتـــلأ. فتغير وجهه القبيح إلى وجه مقبول. ولم أجد مانعا أن أعــــود إليه ولكن بطريق شرعي خاصة أن حياتي مع الوحدة أصبحت تؤلمني.

دليـــلة

تركت جمال يعيش يومين مع أبيه ليتمتع أحدهما بـــالآخر. وعدت إلى بيتي. لألاقي ألما جديدا. إذ دخـــل علـــى عـــاطف وقال: سوف أتزوج يا أمي.

نهضت صارخة: من البنت البولاقية ؟..

ذهل عاطف من كلامي وسألني: كيف عرفت ؟..

قلت: أنا أعرف كل شيء. وأحب أن أقول لك إن هذه البنت ليست من مقامك. وسوف تعاني من العيش معها.

قال بأدب وصرامة: هذه البنت تتعلم الآن بالجامعة. وهـــي بنت مؤدبة. وبنت مثقفة.

- ومن بولاق.

- السكن في بولاق ليس عيبا. إن بولاق كانت هي ســـكن المصريين الأثرياء فيما مضى مثل شبرا. وكـــانت الزمـــالك عششا. والحال لا يدوم. إذا كنت تريدين حضور فرحي فـــأهلا وسهلا. وإذا كنت لا تريدين فأنت حرة.

- وأين ستقيم الفرح ؟..

– سوف أقيمه في بولاق.

تراجعت وأنا أقول: ولم لا تقيمه في قصرك في الزمـــالك. منزل محترم وفخم. وما حواليه رائع وحديقته خلابة.

– إذا أعطني مفتاحه.

– إنه قصرك يا ولدي.. وما لي فيه تنازلت عنه لك. أنـــا أريد أن أراك سعيدا. وكفى. أعمل ما تجد فيه سعادتك.

هل كانت أمي امرأة فقيرة مثل زوجـــة ابنـــي ؟.. وهـــل سيعاملها ابني مثلما عامل أبي أمي؟.. هـــل ســيخطف منـــها المولود الأول ويتركها ويهجرها؟.. لكن أبي كان رجلا ســفيها مخمورا جاهلا. وابني ولد متزن لا يقرب الخمر وقـــد أنـــهى شهادته الجامعية بتفوق. لا. لا يمكن..

انشغلت حتى يحدد ميعاد الفرح بتفقد أملاكـــي الزراعيـــة والعقارية. ولم أصرح له بأني السبب المباشر فـــي اســـتمرار حبيبته في تعليمها. ويبدو أن الفتاة لم تصرح له أنـــها تتلقـــى معونة شهرية من صندوق الزمالة المزعوم في شـــركة أبيـــها المتوفى. ويبدو أنه يمدها بالمال من مصروفه الخاص، لذلـــك كتمت عنه ذلك الأمر حتى لا يتوقف عن الدفع.

وقد كتبت إيصالات عمارة البرج الواقعة على النيل. تلـــك العمارة التي كنت أحتفظ فيها بشقة أخلد إليها كلمـــا داهمتنـــي الآلام. أؤجرها أحيانا مفروشة وأتركـــها دون إيجـــار أحيانـــا أخرى حتى أخلد إليها. وناولت البـــواب الإيصـــالات ليقـــوم

بتجميع إيجارات الشقق وإعطائها له. وذهبت إلى المصرف الواقع بالدور الأرضي لأتقاضى الإيجار منه وأودعه في حسابي الجاري.

دخلت على مدير المصرف. نهض مبتهجا وصافحني: أهلا مدام دليلة.. لحظة وسوف يكون الصك في يدك.

انتظرت. ودخلت امرأة وقورة وصافحها. وقالت بعصبية اندهشت منها لأنها تمثل عصبيتي: أنت المدير.

أجاب الرجل بكل احترام: نعم..

قالت وهي لا تزال غاضبة: أرجوك أن تعلم موظفين البنك الأدب.. فليس من الذوق أن يركن امرأة عجوز مثلي. ويهملني ذلك الإهمال.

قال: كيف ؟.. هل هذا معقول ؟.. ما اسم سيادتك ؟.. سوف أحمل لك المبلغ الذي تطلبينه على الفور.. وأنت جالسة هنا في مكتبي..

قالت المرأة: أنا إخلاص عبد الفتاح وجدي.

نفس الاسم المكتوب في شهادة ميلادي. إخلاص عبد الفتاح وجدي. إنه نفس اسم أمي. هل تكون هذه السيدة الوقورة هي أمي ؟..

نهضت وهي تجلس ودنوت منها وسألت: هل كان لك زوج اسمه محمود شكري.

أعرضت عني وهي تقول: لعنة الله عليه.

سألتها وهي لا تنظر إلي: وهل كان لك منه بنت ؟..

نظرت إلي وهي تقول: ســـرقها.. ســرقها منـــي الكلـب المخمور. لا أعرف أين أراضيه.. كان نصابا سطا على فكري وسطا على ابنتي.إن النار تشتعل في قلبي كلما تذكرتها.. هـل تعرفين أين يقيم ؟..

قلت مبتسمة وعيناي تغرورقان بالدموع: إنه الآن يقيم فـــي مقابر الخفير.. أما البنت فهي تقف أمامك الآن.

تأملتني المرأة والدموع تنهمر من عينيها من أثر الذكـــرى الأليمة. ومن أثر المفاجأة الغريبة المذهلـــة. نــهضت المــرأة وأمسكت بكتفي وتأملتني. ومديـــر المصـــرف مشــدوه مـــن المفاجأة. ثم ضمتني إليها بعصبية. كأنما تريد أن تفرغ في كل آلام السنين القاحلة. وطفقت تقبلني في كل جزء من وجـــهي. وتعود تتأملني. ثم تعود تقبلني. وأنا أقبلها ودموعـــي تنـــهمر. ودموعها لا تتوقف. امرأة في الستين. يبـــدو أنـــها تمـــارس الرياضة باستمرار. مشدودة القامة كأنها بطل من أبطال كمـــال الأجسام. ويبدو من مظهرها أنها ثرية. وأنها معـــتزة برأيـــها وكرامتها وعزة نفسها. لقد أدركت لم هرب أبـــي مـــن هــذه المرأة. كان يريد امرأة لا كرامة لها ولا عزة نفس. وشعر أنــه سوف تكون أيامه معها كلها مشادات ومشاجرات. وقد يكون قد

أدرك أنها لن تسمح له أن يعنفها أو يمس كرامتها أو يهينـــــها فانسحب هاربا منها.

لا تعرفين كيف كان وقع المفاجأة علي. خاصـــــة بعـد أن عرفت أن شقتها قريبة من المصرف. وأنها تقع علــــى النيـل مباشرة. وأنها سيدة مبسوطة الحال. بل كانت تعمـــل بـــالتعليم حتى أحيلت إلى المعاش. ولم تفكر في الزواج بعد أن هجرهــا زوجها وسرق منها ابنتها. لعل نفسها عـــافت كـل الرجـــال، فصارت لا تهفو إليهم. وصرت أنا أهـــرب بـــأولادي مـــن أزواجي. وافتخرت بها لما عرفت أنها جامعية مثقفة وخدعـــها أبي الجاهل بماله وجاهه . أوقعها في شرك الافتتان به ولمــــا لاحظ أن حياته معها ستكون مغلولة أفلت بالغنيمة التي أنجبتها حتى يبعث في قلبها العذاب حتى نهاية العمر. كل ذلك نكايـــــة فيها وفي عزة نفسها واعتدادها بشخصيتها.

أنت لا تدركين كم كانت فرحـــــة الأولاد حينمـــا شـــاهدوا جدتهم. وكانوا جميعا عندي في زيارة لـــــي. وأرادت الجـــدة العجوز أن تؤكد لهم أنها جدتهم أبرزت وثيقة الزواج وبطاقتها الشخصية. ولم يكن هناك حاجة لإثبات ذلك لأنها في غنى عن ابنتها صاحبة الحسب والنسب والثروة. ولا تقل عنـــها حســـبا ونسبا وثروة.

لقد تحررت من كل الأزواج الآن. وتحررت مـــــن العقـــدة النفسية التي كانت تحكم تصرفاتي. غير أني مثل أمي لم أفكـــر أن أتزوج مرة أخرى بعد أن تم طلاقي من جميع أزواجي.

(تمت في يوم ١٥ / ٤ / ١٩٩٨ بالرياض)

المؤلفات:

الكتب السياسية والاقتصادية:

- الرقابة السياسية على أعمال السلطة التنفيذيـــة، مكتبـــة عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٣ .
- العمالة وفرص العمل، كتـــاب الأهـــرام الاقتصـــادي، ١٩٩٨ .
- القرارات الاقتصادية بين الفـــــرد والمجتمـــع، كتـــاب الأهرام الاقتصادي، ٢٠٠٠ .
- الانتخابات، موسوعة الشباب السياسية، ٢٠٠١ .
- الدول بين التخلف والتقدم، كتاب الأهرام الاقتصـــــادي، ٢٠٠٢
- انتخابات مجلس الشـــعب عـــن عـــام٢٠٠٥- مركـــز الدراسات الاستراتيجية بمؤسسة الأهرام، المشـــاركة فـــي وضع الكتاب مع آخرين ٢٠٠٦

الروايات والمجموعات القصصية:

- اللقمة في يد النساء ١٩٧٧
- بذور ١٩٨١
- وقائع غير مرئية تحت الشمس ١٩٨٧
- لآلئ الزمن الخالي ١٩٨٧
- خذ الحذر ١٩٨٨

- غالبا ما يتفتح الزهر ١٩٨٨
- السفر إلى زمن ميت ١٩٨٩
- بعد فوران الحمم ١٩٨٩
- الدكاكين الصغيرة ١٩٩٠
- لو أعلنت الحقيقة ١٩٩١
- نفحات من العطر المعتق ١٩٩١
- العودة إلى الحياة ١٩٩١
- مازلت أتألم ١٩٩٢
- انقلاب في الثلاثين ١٩٩٣
- الجري وراء الأهواء ١٩٩٣
- الميراث ١٩٩٤
- سلام الذئاب والحملان ١٩٩٤
- المصيدة الكبرى ١٩٩٥
- شقة الهوى والهوان ١٩٩٦ (صدرت بتمويل من اتحاد كتاب مصر)
- الحب بالإكراه ١٩٩٩ الناشر: دار الأيام في سوريا دمشق
- ليالي الزعبلاوي ١٩٩٩
- – ملكة الأرخبيل ١٩٩٩
- دوامة بلا حدود١٩٩٩ في سوريا و٢٠٠٠ في مصر الناشر دار قباء للنشر والتوزيع

- – الهجرة من المستنقع ١٩٩٩
- مهاجر من إسرائيل ٢٠٠٠
- الهارب من النار ٢٠٠٢
- أين الكموني ٢٠٠٢
- المتعة عند الغروب ٢٠٠٢
- الأخوان نار ونور ٢٠٠٢
- الخداع يعود بثوب جديد ٢٠٠٢
- فندق الشقاء الأزرق٢٠٠٢
- الميت الحي ٢٠٠٢
- حرب الصقور ٢٠٠٤
- لغة بلا كلمات ٢٠٠٤
- بين المهمشين ٢٠٠٤
- الخطيئة والندم ٢٠٠٤

دار النشر الإلكتروني:

- عبور ٢٠٠٥
- ذكريات فضيلة ودليلة ٢٠٠٥
- اعترافات الورد والشوك ٢٠٠٥
- الطريق إلى الإصلاح السياسي ٢٠٠٥
- توصيات اقتصادية ٢٠٠٥
- السلطات العامة ٢٠٠٥

- السيادة بين الاقتصاد والسياسة ٢٠٠٥
- قضايا دستورية ٢٠٠٥
- بعض ما جادت به القريحة ٢٠٠٥
- عبور الخط الأحمر ٢٠٠٥
- الأهوج ٢٠٠٥
- أيامي الأخيرة٢٠٠٥
- كشف الماضي ٢٠٠٥
- أخبار الشخصيات البارزة ٢٠٠٥
- الاعتقال في الدار ٢٠٠٥
- خسائر ومكاسب (الجزء الأول خســـائر بـــلا تعويضات) ٢٠٠٥
- السلطان والصعلوك مسرحية ٢٠٠٦
- تجديد الفكر السياسي ٢٠٠٦
- احتكار الصواب السياسي ٢٠٠٦

من السيرة الذاتية للمؤلف

الاسم : إيهاب زكي سلام
اسم الشهرة : د. إيهاب سلام
الجنسية : مصري
تاريخ الميلاد: 10/ 9/ 1937
عضو اتحاد الكتاب، كاتب وروائي.
العنوان: 24 شارع الإمام أحمد بن حنبل / شقة رقم 6 الدور الثاني/ الحي السابع/ مدينة نصر/ القاهرة/ مصر.
البريد الإلكتروني **Sallam37@hotmail.com**
الهاتف : الهاتف المحمول: 01030355559
منزل القاهرة**002024032683**
المؤهلات : دكتوراه في الحقوق/ جامعة القاهرة / كلية الحقوق /يناير **1983م**
ماجستير الفلسفة في الدراسات الديموجرافية / المركز الديموجرافي بالقاهرة يونيه **1983م**
اللغات التي يتقنها: اللغة العربية ، اللغة الإنجليزية ،اللغة الفرنسية قراءة وكتابة دون المحادثة السريعة.
الوظائف السابقة :
1- خبير في الأمانة العامة لمجلس القوى العاملة بالرياض.
2- مدير إدارة السياسات و البرامج بوزارة القوى العاملة والتدريب بمصر. عضو المكتب الفني للوزير. مستشار سكرتير الاستخدام الخارجي والهجرة بالاتحاد العام للعمال.